زناد الورد

رواية

أحمد الموسوي

زنـــــاد الـــــورد

محمد الساري.. من «ميدان اللؤلؤة» إلى «ميدان الفداء»

بُنيت هذه الرواية، بناءً على السرديات التي قدمها المقربين من الشهيد، وأضيف لها ما يناسب النص الأدبي.

إهـــــــداء

إلى الأجيال التي عاشت هذه الأحداث، والتي لم تعشها.

هذه بقايا زناد الورد الذي ضربته فداءً للدين والقيم، باقة العمر التي نثرتها لتُعطّر تاريخنا الوطني كلّه.

إليكم أيها الجيل الباحث عن العزّة والكرامة والحرية، لتكون هذه الأوراق شعلة الطريق الذي من أجله خرجنا.

الفصل الأول

في الليلة الفبرايرية الطويلة التي سبقت يوم انطلاقة الثورة، كان قلق الترقّب يهبّ في عقلي مثل رياح شباطية عاتية.

إنها ليلة اثنين، قطعة الخبز التي في يدي تقطر في كوب حليب الشاي، الوجبة الخفيفة التي أعشقها، بينما صورة الشيخ الجمري المثبّتة على الرفّ الثالث من مكتبة التلفزيون في صالة منزلنا تذكّرني بالتسعينيات.

إنّه مساء رائق، لولا الجراحات التي تُنكأ من جديد، ها هي الأحداث ذاتها تطلّ برأسها، مثل أكسجين لابد لرئة الوطن أن تتنفسه في كلّ مرّة، قبل أن يجثم عليها الفساد الخانق.

صور الثوار في الدول العربية تستعيد نفسها في مخيلتي، لا زالت نار محمد البوعزيزي توقظ أمل المستضعفين، الآلاف وهم يرددون في شوارع تونس شعار «الشعب يريد إسقاط النظام»، صدى أصواتهم وكأنه في المنامة، الشيخ التونسي في شارع الحبيب بورقيبة يشير إلى شعره الأشيب وكأنه يبدد دهشة الانتصار: «لقد هرمنا من أجل هذه اللحظة التاريخية»، ثورة الزيتون التي انتصرت لتوّها تغذّي الأمل العربي، مصر أطاحت بدكتاتورها هي الأخرى، واليمن على الطريق، بينما تستعد العديد من الشعوب إلى اللحاق، هل استيقظت الشعوب لتقرّر مصيرها؟

صوت مواء قطة في الزقاق الخارجي يتداخل مع أصوات أبناء أخي حسين وهم يتجادلون حول أمر ما، الأسئلة تتوالد في رأسي مثل فقاعات، ماذا يجب أن نفعل غير هذا؟ عندما تكون الأوطان بحاجة إلى من يستخرجها من القاع، هل نتفرج؟

أتسائل بينما ينتابني تشوّش كبير، إنّها الأيام التي من المفترض أن أعقد خلالها خطبتي، وأعيش أيامي الذهبية. هي هذه أمنية كل شاب، لكن وطني يعترضها!

القضية في داخلي تصارع أماني الشاب العشريني وأحلامه الصغيرة، اثنان وعشرون عامًا من عمري مرّوا مثل برق شتائي سريع، فمن أتزوّج وقد ضجّ ضميري الآن بشعور الواجب؟

تبدو القضية وكأنها عروسة الأيام، تتسربل بالفستان الأبيض للزفاف، وتمشي بغنج، لكن مهرها لابد وأن يكون من هذا الدم الرابض في عروقي، أو هكذا تكون مهور الأوطان.

ورغم ذلك، تداعب خيالي امرأة مثل جغرافيا وطني، لها من الرمان رأس، ومن الطول دراز، ومن العفاف سترة. وعباءتها السوداء، تلك الحريرية اللامعة، سأنصبها في قلبي، تمامًا مثل الرايات الوطنية الكبيرة التي تُنصب في الساحات والأماكن العامة، لتظلّل روحي التائقة.

نعم أيتها المجللة، لقد رأيت الحب عاريًا في سطور الحكايات، والأفلام الهابطة، لكنني وجدته فيكِ متشحًا بالسواد، يخلق إبداعًا في القلب، ويستحثُّ مشاعري من أماكنها السحيقة.

أشتاق الآن، في هذه الليلة الحبلى، أن أتدثّر بعباءتكِ كطفل يختبئ في أمان الله، ذلك الذي لا يوجد إلا في هذه العباءات السوداء الحالكة.

إنها ليلة الثورة يا عروستي، يا بصيص الحب القادم، يحزنني أن تمرّ الأيام من دونك، ولكن، لعلّ الذي أبطأ عنّا هو خيرٌ لي.

في هذا الوقت البارد جدًا، أعوِّل أن تأتين محمّلةً بأعواد الثقاب، لتشعلي مجددًا هذه الجمرة التي في قبضتي، الجمرة نفسها التي سقطت من أيدي الكثيرين، من أجل الرغبات الدونية، والإلحاحات البدنية، والفردية الحقيرة، واللامبالاة.. هل أنتِ مستعدة لنشعل علبة الكبريت بأكملها؟

حبيبة عمري..

هل تعلمين، أنني أشعر بالغثيان عندما يأسر أحدنا نفسه في هذا الروتين الممل، ليكون عبدًا للعبةٍ حياتية تافهة.

أحدنا ينتهي من الجامعة ليقدّم عمره على دفعات يومية للوظيفة التي يطمح بالحصول عليها، ثم يصرف الأيام والسنين في دفع أقساط سيارة أحلامه، وبالتأكيد، فإنه سيشعر بالرضا عندما ينتهي من بناء شقة العمر واستقبال أول مولود..

ألا تشعرين بثقل هذه السلاسل الحديدية؟

أنا لا أعارض سُنّة الحياة، ليست المشكلة في هذه الأشياء بحدّ ذاتها، ولكنني ضد هذا التعلّق الذي يعيقنا عن أداء أدوارنا الإنسانية، فتتعطل حركة التاريخ، ويبقى هؤلاء الظلمة مزيدًا من الوقت في كراسي الحكم، لنصل إلى هذه اللحظة المتقدمة من تاريخنا ونحن لم نحقق شيئًا!

يبدو الأمر وكأنه مفارقة، عندما يشطّ أحدنا عن هذه الزحمة، ماذا وجد مَن آثر السلامة؟ وماذا فَقَد من بقي في طريق ذات الشوكة؟ وما الذي سيحصل عندما ينأى الجميع بأنفسهم عن المسؤولية؟

سنكون حينها جثثًا تحتاج إلى الدفن، تمامًا مثل أي ميت آخر، لكنها هنا، أكثر جيفة في رائحتها من جثث الموتى الاعتياديين. سيكون العالم أكثر خوفًا، لأن الجميع نزلوا من صهوات جيادهم وانصرفوا.

أما في الجبهة الأخرى، سيعقد المفسدون احتفالاتهم الوطنية الكئيبة، وسيرقصون بسيوفهم التي لا تجف الدماء من تحت حدّها، ثم سيتعملقون مثل مارد متوحش، نفخه سكوت الناس!

«لابد من تضحيات» يا رفيقة العمر الذي لابد وأن ينقضي..

كل شيء سينتهي، أنس الأحاديث سيأتي عليه ملل الأيام، والشوق سيباغته الخريف بعد المواسم الطويلة للوصال، لا شيء يبقى غضًا طوال الوقت، فلماذا نبقى حبيسي هذا الفناء الرحيب؟

ثم تعالي لنرى، متى توارى الظلم بالسكوت والمحاباة؟

إنّهم لا يذعنون إلى الحق إلا عندما تهتزّ عروشهم، تمامًا مثل فرعون، عندما رأى الطوفان وقد كاد يطبق عليه، آمن حينها، لكن الوقت كان قد فات، والساعة لا يمكن أن تعود إلى الوراء.

هي هذه قصص الظلم في التاريخ، متشابهة، تتكرّر كما لو أنّ هؤلاء الظالمين جاؤوا من رحم واحد، يمارسون صور الظلم بنفس الطريقة، ثم يذهبون إلى مزابل التاريخ بنفس الطريقة، وبين هذا الظالم وذاك، لا تكاد تجد أحدًا قد أفاق من غيّه!

تعالي يا حبيبة القلب..

تعالي لنرسم خرائط الخلود، لنبني شقّتنا بأبواب واسعة تؤلبنا على الخروج إلى ساحات الانتفاضات الغاضبة، بدلًا من تلك الأرائك الوثيرة التي نرتاح بالقعود عليها طويلًا، فنشعر بالتكاسل، ونبقى في أماكننا متكلّسين، مثل أشياء أخرى لا نفع لها ولا يُرتجى منها أي خير.

رفيقة ثقاب الثورة..

تعالي لنبني عشّنا من الأغصان الصغيرة لصبر الأمّهات وانتظاراتهن الطويلة، من أحلامهن الصامدة، من أوطانهن الآمنة، وأحاديثهن المسكونة بالأمل، فقد بدأتُ أقتنع أخيرًا، أنّ الطريق وعرٌ من دونك، فالرجل مهما يكن، يا سيدة النصف الآخر من ديني، فهو بحاجة لرفيقة دربه.

تعالي معي لنؤثث أرواحنا بالألوان الزاهية للأمل الكبير، والعزم الشديد، والصبر الجميل، ولنتسائل مرّةً إثر مرّة: ماذا أنجز أولئك القاعدون؟ وأي فارقةٍ صنعوا؟ ألم يسأموا بعد من العيش جنبًا إلى جنب مع هؤلاء الظالمين؟

ثم تعالي وتعالي وتعالي، لنمشي في هذا الليل الدامس، بعيدًا عن أضواء النهارات الشائكة، لننعتق من الزحمة، لنشرب معًا اكسير الحياة، ونبتهج في حفلة الخلود، والزلال الوحيد.

تعالي لنعقد هذا الرباط على الافتراق، فأنت لابد وأنّكِ تعرفين، أنّ الوصال الدائم خراب الحب..

دعينا نذوب في جوى اللقاء المنتظر، فنحترق ونحرق الأيام معنا، ونذوي صفراويْن، مثل ورقةٍ يعلمها الله، ستهوي وتتراقص في الهواء، لكنها ستسقط في حضنه في النهاية!

الفصل الأول

٢

خلال هذه الثورة وُلدت، شيء ما أزيح عن عيني وملئها بالدهشة.

هل يمكن للثورات أن تكون أماكن ولادة، مثلما هي ساحات مواجهة؟

منذ الرابع عشر من فبراير ٢٠١١ تغيّرت حياتي كلّها، كأن ذاكرة الماضي قد اندثرت، ماذا كنّا نفعل، وأين كنّا نذهب، وكيف كنّا نقضي حياتنا، أليس هذا غريبًا؟

هل قلت غريب؟ في وطنٍ كلُّ شيءٍ فيه غريب، مثل تلك الينابيع العذبة في وسط البحر!

كل شيء كان قد تغيّر، الضوء الأصفر الباهت في الشارع القريب من منزلنا، أطفال الحي الذين كبروا فجأة، صوت اللهب في تنُّور الخبّاز، النتوءات الداكنة على قرص القمر التام، أحاديث المصلين بعد انتهاء صلاة الجماعة، وشخصيتي.

كانت الأوضاع تسير إلى الأسوأ، واتّسع الدستور العقدي على الراقع. الفساد المالي والاداري، صار لا يُعرف، أهو واحد من ملامح الحكومة القبيحة، أم هو الحكومة ذاتها. التمييز الطائفي والسياسي بلغ في بشاعته، ما يُخاف على جمال الوطن من أنيابه، التي امتدت إلى الدوائر الانتخابية والبعثات الطلابية والمناصب والوظائف. أما تجنيس الغرباء، فلم يعد أمرًا مخجلًا، أن يقرّر أولئك الذين استوطنوا بلادنا يومًا ما، وحكموها بالحديد والنار، أن يغيّروا تركيبتها السكانية، لأن شعبها لا يعجبهم!

لابد أن نثور.

سنثور.

نعم سنثور، حتى لو كانت الدنيا كلّها ضدنا، فنحن في النهاية، كغيرنا من البشر، نريد أن نزاول إنسانيتنا بكل استحقاق.

ولقد سئمنا بالفعل.

سئمنا من كل تلك الوجوه العابسة والطريّة بالنعمة، من شيوخ القبيلة الذين لا يعرفون شيم العروبة إلّا عند صبّ القهوة، ويتأبطون الخيانة والأثرة والامتياز كما يتأبطون «بشوتهم» الكالحة.

فمتى سيعرف هؤلاء، أنّ الأوراق التي تثبت ملكيّتهم لهذه الأرض، لا تساوي الحبر الذي كُتبت به، وأنّهم مهما ملكوا، من أرض البحرين، شبرًا بعد شبر، فإنّهم لن يملكوا شعبها، ولن يسوقوه سوْق العبيد.

كان كل شيء يشير إلى وقوع الثورة، ولكنني، رغم ذلك، كنت أهفو إلى الدراز، مُطبِّبًا تَيَهان الروح برُشد المحراب الساطع، حيث يقف شيخ طاعن في الحب، متكئًا على ربّه، ليُتمّ كلمات الحكمة الرشيدة، على شعبه الذي يأتيه زاحفًا كلّ جُمعة.

وفي الوقت الذي كانت الدعوات تترى في مواقع الشبكة العنكبوتية للانتفاضة في هذا اليوم، كنت أغمر نفسي بين الصفوف المنتظمة في الجامع، بالتحديد في القسم الأخير ذي السقف المعدني.

الوجوه الطيّبة يسكنها رجاء متنائي، الشفاه تتمتم بأوراد شتّى، وأصوات خرزات المسابيح تتوارى خلف صوت الشيخ الرخيم وهو يلقي الخُطبة.

إنّها الكلمة التي يقتفي أثرها جمعٌ كبير من الناس، وأنا أحدهم.

وبين الصفوف، أشعر بسكينة غامرة، وتلفتني، عندما أجيء إلى هذا المكان، جدرانه التي تخبىء أحجيات الماضي القريب، فالعبق هنا، يمتزج بعَرَق الذين كانوا يعتقدون، أنّ هذا هو طريق جهادهم، فأنطلقوا من تحت هذا المنبر إلى مناطقهم، يحفرون في وعورة الطريق.

الأحداث تدحرجت حتى هذا اليوم، المشهد الوطني مليء بالجراحات الغائرة، وألم الخيانة ضاربٌ في الأعماق، هو التاريخ نفسه الذي صَوَّت فيه الشعب لِما سُمي بالميثاق، بالتحديد قبل عشر سنوات من الآن، لتعود من بعد ذلك طبائع المستبدّين، إلى جبلّتها في نقض العهود، والتنكّر لحقوق الرعيّة!

كان يوم اثنين خائف يترقّب، غير واثقٍ مما سيحدث، عندما وُلدت الثورة مع استلال السماء لحمرةٍ مشرقيةٍ متوثبة.

كان الفجر في صفحة الأفق، يخرج من رحم الوجود الذي قرّر فجأة، أن ينفض غبار السكون، ويواجه صولجانة المُلْك العضوض.

عاد الشعب المسالم مجددًا إلى ساحات صراعه، كما في كل مرّة، ينادي بتقرير مصيره وإنهاء الظلم، لكنّ أحدًا من أولئك المتشبثين بالعرش القميء، لم يقابلوا نداءات السلم بمروءة العرب!

خَرَج الشعب في تظاهراته السلمية، ولم يبقَ شبر من أرض الوطن المثخن، إلا وأحسّ بالامتنان، أمام وقفة الشعب البارّ.

وفي الساحات، كانت الطائرات المروحية تحلّق في الأرجاء، وأصوات سيارات الاسعاف تنوح في الشوارع، وتصوّب قوات مرتزقة الأمن فوّهات بنادقها، نحو أجساد المتظاهرين، الذين كانوا يحملون في أيديهم، علم البحرين لوحده، وتبدو أيديهم الخالية، أكثر شموخًا من تلك البنادق المرعوبة!

أخبار التظاهرات وقمعها الوحشي، تتواردُ بوتيرةٍ متصاعدة، وبأس الورود يواجه هزال الرصاص، ومن بين الحشود التي ملئت شوارع الوطن، كان الغاز المسيل للدموع يداهم الرئات الحالمة، دون أن يخنق سوى، مَن ضاقت صدورهم بما رحبت صدور الناس.

كنتُ مندفعًا بين أمواج الطوفان الذي قرّر أن لا يتوقف، أجرُّ حماستي معي، وعلى كتفي الذي بدى مفتولًا، كان علم البحرين يرافقني.

كان أول الغيث وجبة من الضرب المبرح، حصلت عليها خلال التظاهرة التي خرجت بالقرب من مدخل منطقة الدراز، كادت تتكسر خلالها أضلاعي!

ها قد ثرنا يا وطني، يا من كنت طوال هذه السنين تعاتب الهدوء الخابي، فلماذا الآن، تبدو منطفئًا، يائسًا، وحزينًا؟

لا عليك، فلن نقبل هذه المرة، أن تسكب سيوف القبيلة الصقيلة دمائنا من دون وجه حق، أو تطغى، وعندما تفعل، فإنما لأنّ الله، أراد أن يستدرجها إلى مزبلة التاريخ.

تَزَعزَع القصر العاجي في «الرفاع»، وأصبح الملك كمن يودّع طمأنينته، يلفُّ قاعات قصره ذهابًا وإيابًا، وتحوم في رأسه، خيبة مشروعه الإصلاحي الكاذب.

كان يومًا طويلًا، ويمثل فاصلة بين أيامٍ خلت، لن تعود كما كانت.

ويومها، شعرتُ بالعزة كشيءٍ يتدفّق في قلبي.

وكمن يبحث عن الكرامة، في وجوه الأجداد الذين ذهبوا بحسرتهم إلى رحمة الله، صرتُ أصيخ السمع لأصواتهم الجهورية وهي تتحدث عمّا يجري، فيما تعلو شفاههم الذابلة، ابتسامات مُمتنّة.

كان المساء قد تسلّل إلى سماء الجزيرة الوادعة، وأظهر جمالها وهي تتلفّع بالليل.

نسائم فبراير الساحرة تداعب تقطيبتي الحادّة، وترسل صوت نباحٍ يضمحل في الأفق البعيد.

الحمرة المغربية الباهرة أحالتني إلى المسجد المجاور لمنزلنا، حيث أحبّ.

الصلاة انعتاقة الروح، اغتسالتها من الأدران العالقة، هجْعتها من صخب الحياة، وفي ذات الوقت، إعلان يومي بالثورة على كل الألوهيات الكاذبة، من أولئك المتجبرين الذين ظنوا فيما ظنوا، عندما تهيّأت لهم أسباب القوة والعظمة، أنهم آلهة من دون الله!

كانت الأمور تتجه إلى النهاية، بعد يومٍ حافل بالصمود، والاصرار الذي لا ينكسر.

كان يومًا مضيئًا يُخشى عليه من الانطفاء، لولا عطر الدماء الذي فاح مع نسائم المساء الرطيب، وصار يعبق بأريجٍ زاكي.

مساءً، في الزقاق الضيّق المؤدّي إلى منزله، سقط الشاب علي مشيمع وهو يخور في دمائه، بعد أن أصيب بالرصاص الانشطاري في ظهره، ترنّح وتعثّر بخطواته حتى وصل إلى باب الدار، وخَرَّ هناك على وجهه.

والده الذي بدى مصدومًا، وانطفئت في عينيه فجأة، أضواء الدنيا، نَقَلَه سريعًا إلى المستشفى، لكنّ روحه كانت أسرع إلى الملكوت!

يا لحظّك السعيد يا علي، إنها لحظة بهيجة، عندما ينتهي بك الأمر مظلومًا، وقد بعثك أقذر المخلوقات إلى جنّة الله.

يظنّون أنّهم قتلوك، لا يعرفون أنّها لحظة الوصول إلى ذروة الحياة، إلى العلياء الفسيحة، والأفق المتسع.

اِقتَرِب أيُّها الجميل، لنُثرثر من دون انقطاع عن نشوة الموت الشريف، عن الألم الذي سرعان ما يتلاشى، عن الأشياء الخلاّبة التيِّ رأيتها بعد تحليقك، عن خاطرك المكسور الذي جُبِر سريعًا، عن السجاد الأحمر الفاخر الذي بُسط لملاقاتك، وعن جرعة المستطاب، وربما، ربما عن الرحيل في المساءات الشتوية الوسيمة.

شعرتُ برغبة حبيسة تريد التحرّر، مثل غرس جديد يستيقظ من بين كثبان رملية مبللة، ويعانق الضوء لأوّل مرّة.

ودون سابق إنذار، فاض قلبي شوقًا، وأحسستُ أنني أريد الفناء في غبش الضياء الجميل!

صار قلبي يحمحم، ويهرق رجاءً حارًا.

رفعتُ رأسي إلى السماء، وأرسلتُ أمنية، ثم شاهدتُ كيف وصلت إلى المدى البعيد، تمامًا إلى المكان الذي لا ترجع معه خائبة.

وعندما كان الليل يدسّ الثورة في العروق الكامنة، كانت البلاد قد دَخَلَت نقطة اللاعودة، حَسَمَها سقوط الشهيد الثاني في اليوم التالي، الرصاصات نفسها أردَت الشاب فاضل المتروك أمام مدخل مستشفى السلمانية خلال التشييع المهيب للشهيد الأول، حينما كان الناس قد خرجوا وفوق أكتافهم جنازته، متوجهين بها إلى المقبرة، ويحدوهم عزم شديد، وبأسٌ لا يتزلزل، وأشياء لا تعود بهم إلى الوراء.

الفصل الأول

٣

كانت الشمس في كبد السماء شاحبة تعتصر لونًا يشبه الشهادة، وترسل خيوط الظهيرة لتدّفئ يومًا شتائيًا فريدًا، عندما كان أبناء شعبي قد وصلوا إلى «دوّار اللؤلؤة»، الميدان الذي سيتخذونه مكانًا مركزيًا لتصعيد الاحتجاجات، بعد أن ودَّعوا شهيدين هما أول ضحايا عنف السلطة.

حينما وصلتُ إلى هناك، كانت «اللؤلؤة» لا تزال تتقاذفها ستُّ أمواج شامخة عاتية، وتلتمع ببريق بديع، كأن الغوّاص الأسمر أخرجها من محّارتها للتوِّ، فسقطت من يده في الماء!

النسوة اللاتي يزحن عن جبين الثورة عناءها، ينثرن الورود والمشموم على المتوافدين، كمن يحتفل بلحظة الكرامة وكأنها لحظة الزفاف.

جمعٌ يرفع قبضاته الغاضبة ويهتف باسقاط النظام، وآخرون يرتّبون المكان الذي أصبح ميدانهم.

رائحة البحر القريب تحمل حكايات الصيّادين المتعبين، بينما تنتصب النخيل الشامخة على أطراف «الدوّار» لتستجيب لرياحٍ شمالية عليلة، فتُحَرِّك سعفها الأخضر كمن يرحّب بالقادمين.

المسار السياسي يتجه نحو المجهول، وجلالة الخائن الذي فشل للتوّ في شراء ذمم الناس بمنحةٍ مالية عقيمة، يكسب المزيد من الوقت بتصريحاتٍ للاستهلاك، لجنة هنا للتحقيق في مقتل الشهيدين، ودعاوى للنوايا الخيّرة والحوارٍ هناك، كلّ ذلك، سيكشف في الساعات القادمة، بأنّ السلطة تتحيّن الفرصة للفتك بفريستها!

لحظتها، كان النظام قد سقط فعلًا، قبل أن يهتف المتجمهرون بذلك، تمامًا في اللحظة التي قرّر فيها أن يوغل في دماء أبناء شعبه، تهاوت آخر معاقل الشرعية المفترضة، وتهشّم كل شيء، بحيث لا يمكن إصلاحه. إنّ شيئًا سيتم رتقه لن يكون مثل سابق عهده، لن يكون هو.

وهذا ما حَمَل العديد من أبناء الشعب إلى رفع وتيرة مطالبهم، إنّها السُنّة التي تجعل من إرادتهم تُضاعف ما يُمتنع عن إعطاءه لهم اليوم، فعدم الاستجابة بتحقيق المطالب السياسية الطبيعية، يعني السعي وراء إزالة العقبات التي تحول دون ذلك، أليس هذا هو السياق الفطري لمسيرة الإنسان؟

تحَّول الدوّار إلى فضاء كبير، تحوطه خيامٌ بأحجام مختلفة، بعضها للراحة والسكن، وبعضها لعقد المنتديات واللقاءات.

المضائف تتوزع على امتداد المكان، أما الجهة الغربية فأصبحت خلاءً مفتوحًا للناس، تتصدره منصّة لإطلاق الشعارات، وإلقاء الخطابات والأناشيد الوطنية.

بدى المكان وكأنه خُلِقَ من أجل هذه اللحظة، بعد أن كان مجرد تمثال تطوف عليه المارّة، صار الآن ميدانًا يجمع أبناء الشعب بكل أطيافهم، ويضج بالحياة.

من يصدّق؟ أن يكون هذا «الدّوار» الذي يعبر بالسيارات إلى عدّة مسارات معبرًا لمسارٍ سياسي واحد! هذا المكان ليس مدارًا للدوران في حلقة مفرغة، فالأوطان بحاجةٍ إلى مثل هذه الدوّارات لتطوف أشواطها التاريخية بكل سهولة، حتى تعبر إلى المسار الصحيح، أليس كذلك؟

تبدو الناطحات الشاهقة القريبة والمتفرقة متغطرسة في علوّها، مثل أبراج عاجية أحجمت عمّا تحتها، لتُجسّد قهرًا، قصة الطغاة مع شعوبهم.

السوق المركزي القريب يكتم خيبات الكادحين، كمن أخفى طوال هذه السنين أشجانهم في صدره، وأراد الآن أن يفشي أحلامهم أمام هذا الجمع الكبير!

صرتُ أتأمل الثورة في وجوه كل هؤلاء الناس، أتلمَّس آلامهم التي تربت عليها الكرامة ليصبروا على الطريق الطويل، حتى لا يضعفوا أو يستكينوا أو يغلبهم التعب. أُشاهد هالات الشوق تحت قلوبهم الجميلة، الآمال الطريّة التي تسكن أرواحهم، ورَيَعَان البدايات الأولى في بريق أعينهم.

خشيتُ عليهم من قساوة ما سيأتي، وأُصبتُ بدهشة الانطباعات وقد فَتَحَت كلّ هذا الكشف، هل ثُرنا حقًا، ونحن الذين قسَّمتنا الأيام وأضنتنا كثرة الطرق؟!

توجّستُ خوفًا، ليس من انفراط حبّات هذا المسباح الذي انتظم، إنما من تلك الغرف السوداء التي لابد وأنها تُحيك مؤامراتها الآن.

تلفَّتُ هنا وهناك، أتذكّر التضاريس القاسية لهذه الجزيرة الضائعة، وترفّقتُ بأسئلةٍ فظَّة: متى ينكسر القيد عن هذا الوطن السليب؟

متى يأتينا الصبح؟ ومتى تسكن الآلام؟!

كانت مشاعري شائكة، بين فرحةٍ مكتومة بخجل الذياع، لأنّ هذا الوقت ليس وقتها، تمامًا مثل كل أفراحنا المؤجلة، وبين خوفٍ يترقب ما سيحدث، فليس هذا هو الفصل الأخير من القصة كما يبدو للبعض، فالانتصارات لا تأتي من دون تضحيات كبيرة!

صرتُ سارحًا في تفاصيل هذا الحدث السياسي الجديد، أتسائل لماذا يبدو المكان وكأنه وُجِدَ للتوّ، رغم مرورنا الكثير من هنا؟

لا أدري.. ربما هي آفة الاعتياد، عندما تكون الأشياء مألوفة إلى الحد الذي لا نشعر بوجودها، فإذا ما كَسَبَ وجودها معنى آخر، أصبحت وكأنها جديدة!

وكمن يخشى أن تفلت اللحظة من يده، أخذت أتزوّد من كل شيء، وأملئ رئتي برائحة المكان، لكي لا أصاب باحباط شديد، أو صدمة مريرة، عندما يتشح الطريق بالظلام الدامس.

* * * *

على الحشائش الخضراء النديّة المتوزعة في المكان كقطعٍ متفرقة، وبينما كانت الشخصيات السياسية تتوالى في إلقاء خطاباتها حتى منتصف الليل، وأصوات الناس تتداخل فيما بينها مثل عجيج لا يتوقف، رميتُ بجسدي هناك. قرّرتُ أن أبقى، تلحّفتُ السماء، وتشبثتُ بالأرض.

كانت صفحة السماء صافية، مرصّعة بنجوم تتلألأ بسناء خافت، لكنها أيضًا، وبشكلٍ عجائبي، ملبّدة بأوجاع آتية مع السحاب المدلهّم، فأسوأ الأيام لم تأتي بعد.

هكذا يبيت الوطن ليلته في العراء، وعندما يرتفع شخيره المستهتر، الذي يشبه نحيب الأمهات اللواتي فقدن أولادهن، يجيء أبناؤه ليغطوه بشراشف الاخلاص، ويطبعون على خدّه المتشقّق قُبلات الحب!

أكان هذا عهدنا معك؟ أن نكون حرّاسًا لليّون لكلّ هذه الجغرافيا البائسة؟ آباء أو أمهات بدل أن نكون أبناءك؟

ما الذي حدث؟ حتّى صرنا تحت سواتر الدفاع عن وطن نائم، لا نكاد نغفو إلا وأيقظنا على أنينه المتقطّع!

استيقظ يا هذا الأرخبيل الغافي في الخليج، لنستريح نحن..

تعال إلى عشاءٍ أخير، قبل أن نُصلَب معًا على بوّابات الأوطان التي يختطفها الغول، فنكون عِبرةً مفترضة!

في الساعة الثانية عشرة والنصف، دبّ النعاسُ في جسدي وأصابه بخدر خفيف، أغمَضتُ عيني في سكون الوجود الرهيف، بينما تجلّت أسطورة غابرة في أحلامي.

أيُّ حلم هذا الذي ينبعث من أزمانه السحيقة، ليأتي إلى هنا؟

كان القمر في حُلمي مكتملًا، ساطعًا ومتألقًا، يداعب ضوؤه الفضي ماء البحر بلطفٍ سابغ.

الدنيا من حولي ظلام، إلاّ من سناء القمر الذي أخذ فجأة ينادي المحّارات لتطفو.

إنها لغة الضوء عندما يرقص على الماء.

أصبح الضوء شفيفًا، وخرير الأمواج الوادعة مثل سيمفونية تمتزج مع هذا المشهد الأخّاذ، فيصيران شيئًا واحدًا.

ودون أن تكون حائرة، تخرج أربع محارات مستسلمة لهذا الحدث الكوني الفاتن، تفتح أحضانها لقطرات صغيرة من نور القمر، فتتحوّل في أحشاءها إلى لآلىء برّاقة.

إنّها لعبة النور عندما يكون خلاّقًا.

استيقظتُ من نومي وكأنّ هناك من نبَّهني، كان الجو باردًا، يفرّق الطلّ على الأشياء.

صرتُ أوزّع بصري على المكان مثل من يبحث عن شيء دون أن يدركه، وعندما لم أر جديدًا، انتهك شهاب طمأنينة السماء واختفى في التخوم البعيدة.

كان الثلث الأخير من الليل قد بدأ مشواره نحو الفجر، صوت سعال من بعيد، وصديقي حسن يغطّ في نومه ويشخر بعنف، دخان سجائر يتصاعد من خيمة قريبة، شابين يمشيان عائديْن لخيمتهما، أحاديث الناس أخفّ مما كانت عليه، الأضواء الليلية تنعكس على أماكن وتختفي من أماكن أخرى، بينما تشتعل قناديل الحلم الغريب في رأسي، دون أن أعرف ماذا يعني!

الفصل الأول

٤

إنها ليلة خميس تستجلب كل أشجان التاريخ، لا أدري لماذا، فهذا القلب الذي في داخلي ينبض خوفًا وانقباضًا شديدًا.

ورغم هذا الصخب الذي يبدّد سكون المكان، إلا أنّ شيئًا ثقيلًا يلقي بظلاله على الأشياء، فيجعلها تعزف لحنًا حزينًا لا يكاد يروي غليل نذير الشؤم هذا.

ومن مكان ما، كان نعيب غراب يتهدج مثل مَن لا يتحمّل غصّة الخراب القادم. رياح منكسرة، خفيفة ونديّة، تلاعب سعف النخيل الكئيبة، وعواء كلاب يأتي من بعيد، فيما تستمر الناس في حركتها الاعتيادية.

تبدو المنامة غارقة في سكرتها المعتادة، تندب بكارتها التي فُضت منذ زمن بعيد، عندما تحيّن لها الأشرار فرصتهم وأخذوها معهم لتهوي في الشقاء، كأنّ هذا الليل يحمل عتابها المرير لأبنائها الذين تركوها وحيدة: لماذا تركتم مدينتكم المغتصبة؟

ما أشد حلكة هذه الليلة رغم كل هذا الضياء، كأنه يستحث الوجع من أماكن قصيّة، أو لعلّ الوطن قد أراد النوم مبكرًا، تحسّبًا لأخبار الصباح!

شعرت بجوع يقرص جوفي، فذهبت مع الأصدقاء لمضيفٍ قريب. كان تناول الطعام وكأنّه حدثٌ غريب، تمامًا مثل كل هذه الأشياء التي تدبّ فيها الوحشة. تناولنا سندويشًا لذيذًا، كان صديقي يُحلِّل كلمة إبراهيم شريف* التي ألقاها ليلة الأمس، بينما يسيل على شدقه خطٌّ طويل من الكاتشاب، لم يكد خليل ينتهي حتى تسائلت مثل من يتبصّر ظلام هذه الليلة الباردة: هل تعتقدون أن السلطة سوف تتركنا؟ وكم من المدة ستصبر؟

مرّ اليوم الأول وأطياف الشهداء ترفرف في ميدان الثورة الجديد، تبعث تحايا الأرواح التي استراحت في خلودها الأبدي، إلى الشعب الذي آثر طريق الآلام على الذلّ، كانت تُظلّل المكان وتنشر أثير وصايا كل الذين روو عطش التراب بأغلى ما يملكون: لا تستسلموا يا أحبّاءنا الذين تواصلون المسيرة رغم كلّ ما سيحدث، وإن تنصروا الله، فلا غالب لكم.

هي ليلة تشبه الليالي المذعورة، القمر يكابد ألمًا وقلقًا وترقبًا، وصفحة السماء كئيبة تنبئ بحدثٍ جلل، كأنّ قِطَع الليل المظلم قد تجمّعت لتداهم النجوم النابضة!

ليلتها، أخذت أفكّر، وتحوم في عقلي هواجس شتّى، موعد خطبتي الذي حان، فاطمة التي أصبح قدرها قدري، الشقة التي لم يسعفني الوقت لبنائها، كانت هذه الأشياء تهاجمني مثل حيوانات بريّة جائعة وتوسوس لي، تناديني للتخلّي قليلًا عن مسؤولياتي، وتوهمني بأن هناك المزيد من الوقت، لكن هذا القلق سرعان ما تبدَّد، فجريمة قتل الشهيدين مشيمع والمتروك هزّت وجداني، وأيقظت حلمًا نائمًا في أعماقي، تَنَبَّهَ مستعجلًا حتى لا تفوته قطارات العشق الأخيرة. تسائلت، تسائلت مذعورًا من هروب الفرصة، هل يمكنني اللحاق؟

في الثالثة فجرًا، وفيما يستعدّ السَحَر لدويّ المحاريب الدافئة، وبينما كانت أمٌّ حنونة في مكان ما، تهدهد رضيعها وتنشد له بصوتٍ أنهكه السهر، كانت ذئاب الغدر تهاجم المعتصمين بأعيرتها النارية من الجهة الشمالية للدوّار، دخان «مسيلات الدموع» يداهم المكان بسحابة متوحشة، وأزيز الرصاص الانشطاري يجلجل على الأجساد.

كانت لجان التحقيق التي وَعَدَ بها ملك البلاد، قد أخذت مكانها في سلّة المهملات، سَقَط حينها قناع القاتل، ولم يكن هذا، مفاجئًا، فهذه طبائع الخائنين!

بدى المكان وكأنه ساحة حرب، الناس يستيقظون فزعين مرعوبين من هذه الغيلة، صراخ الأطفال والنساء يثير حميّة الغيارى فيزيدهم عزمًا على المواجهة. رجلٌ يبدو طاعنًا بثوبه الذي يختفي لونه في الظلام يهتف بصوت مختنق: «الله أكبر، الله أكبر، هيهات منا الذلة»، فيما يمدُّ شاب يده القوية لطفل تعثّر. الأصوات تتداخل وتحدث جلبة كبيرة.

الناس يلملمون أحلامهم ويتأبطون سلميتهم التي لم تُوقظ مروءة القتلة، ويستعدّون لملحمتهم البطولية المشرقة، «لا تتراجعوا..» صرَخَتُ بصوتٍ تلاشى في الحشود المستنفرة، شابٌ فار الدم في عروقه الفتيّة صَرَخ هو كذلك.

مرّت دقائق، حتى نزل رجال مرتزقة الأمن مترجلين عبر المنحدر العشبي، من أعلى الجسر العلوي المحاذي للميدان، فصاروا يشتبكون مع الناس وجهًا لوجه، فوّهات السلاح في مرمى فرائسها، وهتافات «سلمية.. سلمية» لا يخنقها الدخان الأبيض

الذي يملأ المكان، لكنّ حمامًا أخذ يفرّ من أعشاشه ويهيم في ظلام الليل من دون وجهة!

وبين كل هذه المعمعة، كان رجل خمسيني أخذ الشيب من شعره، لكنه لم يأخذ من غيرته، قد استيقظ على صوت لهاث ابنه يدعوه إلى مغادرة المكان، ليمسك الأب بيد ابنه متجهًا به إلى خيام النساء: هل تسمع صرخات هؤلاء؟ كيف نهرب ونتركهم هنا؟ قال الأب وعلامات الاستغراب ترتسم على ملامح وجه ابنه الذي لا زال أجردًا.

كان هذا هو درس الحاج «علي خضير» الأخير إلى ابنه الأصغر، قبل أن يستشهد متأثرًا بجراحه. كانت هذه قصة الشاب «محمود أبوتاكي» كذلك.

كأنّ الغيرة عجنت أرواحهم التي ترفض أن تغادر مستسلمة، أو هكذا هي عجينة أرواح الشهداء.

كنتُ أتخطى صرخة وجع، لأمرّ فوق بركة دمّ، وأشلاء متناثرة، دون أن يأتيني طارق العبور إلى الملكوت، رغم إصابتي الطفيفة بقنبلة صوتية في يدي.

كان القمر يتلفّع بالليل كمن لا يريد أن يشاهد ما يجري، يتوارى وراء سُحب داكنة تحبس أمطار الأسى!

وحينها، عرفتُ أنّ فصول تاريخنا الوطني، لابد وأنها تُكتب هنا، من هذه الدماء العبيطة، والجراحات الغزيرة، والتي ترسم خرائط الفداء، بقصص البسالة والشهامة وشجاعة المضحّين.

هذا هو الوجه الناصع الذي لا يندثر مع التاريخ الأصفر، ولا يغيب أو ينتهي.

هذه هي القصص الوطنية التي تستحق أن تُروى، لأنها كُتبت بالدم القاني.

لاحقًا، كان الشاب «علي المؤمن» الذي خَطّ على مساحته الخاصة عبر الشبكة العنكبوتية «نفسي فداء وطني»، يلاحق طير سَعْده.

عاد «المؤمن» من ميدان اللؤلؤة إلى منزله في جزيرة سترة متأخرًا تلك الليلة، لكنه رجع بعد أن تناهى إلى مسمعه خبر الهجوم الغادر وقد تقهقر الناس عن المكان،

لينضمّ إلى المتجمهرين بالقرب من مستشفى السلمانية، والذين كانوا قد عزموا على الذهاب في تظاهرة سلمية إلى الميدان، ليطالبوا بتمكين سيارات الاسعاف من الوصول إلى هناك. لكنه لم يعد، ذهب علي إلى الميدان ولم يعد، أصيب بالرصاص الانشطاري، وشوهدت القوات وهي تتدافع على جسده بأعواد بنادقها وتركله بأحذيتها عند التقاطع المؤدي إلى هناك.

إنّ الشهداء يد الله في البطش بأشقيائه، فهم يُعرّون القتلة، ويطيحون بكل جدران الآمال المعقودة عليهم. إنّهم الاستدراجة الإلهية للظالمين الذين تستّروا بأقنعة الخير والصلاح، إنّ الشهداء يكشفون أقنعتهم تلك، ويُسقطونهم من أعين الخلق.

إنّ الشهداء رسالة الله لعباده حتّى لا تمسّهم النار، عن أولئك المتجبّرين: لا تُوّادُّوهم، ولا ترضَوْا عنهم، ولا تتعاونوا معهم، ولا تركنوا إليهم.

كان الصباح قد طوى تلك الليلة الفجيعة وأتى مستحييًا، لكن نذر المآتم لا زالت تجوس خلال الديار التي بدى حزنها غائرًا، وجرحها لا يندمل.

الرجل الستيني الحاج «عيسى عبدالحسن» هو الآخر في تلك المسيرة التي كان الميدان وجهتها، كانت تجاعيد السنين قد رسمت وجهًا لا ينكسر، يتكئ على عكازه ويستهزئ بالأعوام التي تباغته، ومن بين سحاب الدخان الخانق الذي انقشع لوهلة، بدى رأسه مُهشّمًا، بعد أن أفرغ فيه رجل أمن من مسافة قصيرة كامل ذخيرته!

الفصل الأول

٥

كانت كرة الأحداث تتدحرج بسرعة، أنا أمشي متجهًا لدوار اللؤلؤة بين حشود لا أعرف عددها بالضبط، قوات الجيش التي احتلّت المكان وحوّلته لثكنة عسكرية تنتشر متأهبة لوصولنا.

فوّهات البنادق من أمامنا، والوطن من خلفنا، يتربص انتصارنا بعد أن تحنّى بدماء الخميس الدامي.

الجموع الغاضبة تدوس حسابات السياسة، مَن لحق بنا استشهد، ومن تخلّف عنّا لم يبلغ الفتح. اليوم هو ختام مراسم عزاء الشهيد الأول علي مشيمع، ونحن نردّد «إلى الشهادة.. إلى الشهادة» بايقاع حماسي جيّاش، مثل أهزوجة لابد أن تُقال، لتُدخل الرعب على قلوب الأعداء في الجبهة المقابلة.

كان الطريق من مقبرة الديه إلى دوّار اللؤلؤة مثل مسار سياسي حتمي لابد أن نقطعه، وأن نُقدِّم خلاله التضحية تلو التضحية، ورغم المسافة المديدة، فإنّ التوّقف عن هذا المسار يعني الاستسلام، العودة من حيث أتينا، والركوع تحت حدّ المقصلة!

التاريخ تدحرجه التضحيات الكبرى، هذا ما يصنع الفارقة، وإلا فإنّ الخوف والتردّد والنكوص لا يُحدث شيئًا، بل يشجّع الظالمين على المزيد من البطش والطغيان. إنها المواجهة التي لا مناص منها، عندما تكون الأوطان بين خيارين، إما السلة أو الذلة، فإنّ الادبار يكون رذيلة لا يرتكبها الأحرار.

هذه هي سيرورة الثورات، فلماذا هذا التردّد الذي يجعل البعض يتوقفون في بداية الطريق خوفًا من غزارة الدماء؟ إنّ تقدمًا في حال الشعوب لن يحدث بالحراك السياسي لوحده، ولا بالمؤتمرات الصحفية، فشجرة الحرية لابد أن تُروى بكل غالٍ ونفيس، حتى يشتدّ عودها وتثمر، أليس هذا ما قرأناه في سيرة كل الثورات؟

قدماي تسيران بثبات، وحركة أقدام الجموع التي تسير هي الأخرى كذلك، تُحدث دوارًا خفيفًا في عقلي، هكذا أجدني، وفي يدي علم وطني البائس، رفيق الثورة المخلص.

ورغم رباطة الجأش التي تعتريني، واندفاع كل هؤلاء الناس من حولي، صارت تناقضات الحياة تتزاحم في قلبي مثل أمواج عاتية تريد أن تُغرق حماسي الثائر، هل أتوقف؟ إنّه الوحل إذن، لا تكاد تريد التحرّر منه حتى يشدّك إليه!

نظرتُ إلى السماء فلمحتُ سربًا من النوارس وهو يغادر المكان، أحنيت رأسي ثم عاودت النظر، رأيتُ سُحبًا هشّة وهي تخفّف سرعة مرورها..

ما الذي يُبقيكَ هنا؟ يبتلعك الوَحْل فلا تحيا من بعد ذلك! –قلتُ لنفسي–.

الأقدام تطوي خطواتها بحركة واحدة، معها تُطوى صحائف التاريخ، كما لو كان الأمل على بُعد خطوات، التاريخ رهن الأقدام المتحركة، ولا يحفل بالأقدام المتعبة!

صرت أقتفي بسالة الأقدام التي تحفر في الأسفلت آثار وشوم الكفاح على جسد الأرض الملحاء، ولا تعبأ بكل هذه الدبابات المفزوعة، أجد الوشوم أمامنا وقد طُبِعت وشمًا على وشم، فأمدُّ دهشتي نحو البعيد، أراها رثّة لكنّ معالمها لا تختفي.

أواصل المشي بخطاي الميكانيكية نفسها، أتساءل فيما أقوم بذلك، لماذا لا أتخلّى عن كل هذه الأحمال الآن، وأخلّص نفسي؟ أكاد أختنق من هذا القفص الضيّق الذي يأسر روحي.. أشعر بالراحة قليلًا لمجرد التفكير بذلك، كأنّ شيئًا يدفعني للتنكر لكل هذه الحياة، لكن بعضًا من الحنين الدافيء يباغت قلبي، أجدني ضعيفًا في حضرة أهلي.. أمي؟!

الهتافات تبدد المسافة الطويلة.. «سلمية.. سلمية.. إلى الشهادة.. إلى الشهادة»، لكنها لا تُفرّق كل هذه المعمعة التي تحتدم في صدري، أحسستُ وكأنني هائم على وجهي، وفهمتُ أنني ضائع، وللحظة، شعرتُ برغبة جامحة للكلام مع «فاطمة»، وسرد أحلامي أمامها، البائتة منها والغضّة، لكن أفقًا مترامِيًا يفصلني، وعندما أدركت أنّه لا الزمان ولا المكان مناسبَيْن، طأطأتُ رأسي خجلًا، من كل أولئك الذين قدّموا أرواحهم على مذبح الوطن، ما الذي ضرّهم وقد كانت منيّتهم ستأتي ولو من بعد حين؟

ضجّ قلبي بالامتنان، وانتابتني مسؤولية متابعة طريقهم كما لو أنّها أُلقيت على ظهري للتوّ، كما لو كانت نوعًا من ردّ الجميل.

احدودب ظهري لثقل عهد الوفاء هذا، وصرتُ أعثر بخطواتي، لكنّ وهجًا تليدًا في قلبي أخذ ينبض، يومض فرحًا عجيبًا، ها هو الطريق الذي تبحث عنه أمامك، أنت تمشي في مساره الآن، ألم تقل بأنك تريد اللحاق؟ ارتعش القلب وقد أوهنه الشوق، العطش، والضوء الذي طالما أعشاني وأردت التلاشي فيه.

إنها الفرصة التي تبحث عنها، فلماذا ترتكب رذيلة التردّد الآن وقد وافتك أحلامك؟

كنت أخنق الارتباك بين زحام هذه الأقدام التي تسير نحو إمضاءة الفتح، عندما فاجئتني رصاصة الجيش في صدري، تمامًا بالقرب من هيجاء القلب الحامية، وخَرَجَت من ظهري!

دبّ سكون في الأشياء، يشبه الهدوء الذي يعقب المعارك الضارية، ولكنّ جلبة كبيرة لم تشأ أن يطول ذلك. عبدالرضا بوحميد ممدّدًا على أرض جرداء إلاّ من دمائه، ورأسه الذي كان يتجشم عناء الأحلام المرهقة، صار ينشرح لرصاصة!

أحدهم يصرخ «الله أكبر.. الله أكبر»، وصيحات تتعالى هنا وهناك، وبين من يتقدّم ويتراجع، أحسستُ بحرارة خيط الدم وهو يجري من جرحي، مثل ميزاب يجهش بسيول المطر.

كان صوت الرصاص يصدح في المكان بشكلٍ متقطّع، غزيرًا مثلما يحدث أثناء الحرب، فلربما اعتقد هؤلاء الجنود الذين لم يدخلوا يومًا في حرب، أنّهم في مواجهة جيش مدجج!

نعم..

كنّا مدججين بالآمال الوطنية الباسقة، والحب السميك، وكانوا مدججين بالعبث والاستئثار، والأحقاد السبعينية، والثمانينية، والتسعينية، وغيرهن..

أسرع عدد من الشباب لانتشالي، وخيّمٍ صمت رهيب مرّة أخرى، وغَيَّب ما حولي، بقِيَت عيني تقلّب طرفها ببرود، سارحةً في كل هذه الوجوه التي لم يغيّر ملامحها الرصاص.

كان الوجود يملؤني بحنان لطيف، ويضمّني في رحمة غامرة.

وحينما لم تأتي ملائكة الله لتحرّر هذا الجسد الذي أصبح فجأة، لا يحمل نفسه، شعرتُ بفداحة الخسارة، وأصبت بخيبة كبيرة، وكأنني قد هُزمت!

الفصل الأول

٦

كنت مستلقيًا على سرير أبيض في مستشفى السلمانية الطبي، عندما فتحتُ عيني على وجع الجرح المزدوج، جرح في الصدر يحاذي أطراف القلب المأخوذ باللهفة، وجرح آخر في الظهر يقارب عمودي الفقري!

كانت رصاصة الجيش قد عَبَرَت كل هذا المجال الرخو من الأمام إلى الخلف. وبمسافة أقل من واحد سنتيمتر، تحاشت تلك الجبانة قلبي، وهشّمت ضلعين اشتبهت عليهما ظنون القوّة، وفتّتَت جانبًا من رئتي، ثم رحلت دون أن تفسّر مرورها الخاطف هذا!

ما هذا الرصاص الهشّ الذي لا يقتل كل هذا الحشد من اللحم؟ تسائلت بينما كنت أهجر بكلام لا يدرك حقيقة ما حدث، ولّما لم أجد من يجيب، رحتُ أبحث عن رصاصتي العَجولة، لأعرف أسباب المرور العاجل.

كان علينا أن نعقد صفقة أيتها الرصاصة المسرعة، أن تبقي أنتِ في جسدي مزيدًا من الوقت، وأنا أستحثّ العروج الذي أريد، فلماذا هذا الاستعجال والضيف ضيف الله!

لماذا لم تبقي هنا؟ في المكان المهشّم من هذا الصدر الخائر؟ لترقصي على وقع الظفر بجسدٍ هزيل؟ لتقيمي حفلًا شامتًا فوق كل هذه الأنقاض؟ وعندما تسائلت وتسائلت وتسائلت، تردّد صوتي في القاعة التي تبدو فيها المصابيح شاحبة، لكنّ أحدًا لم يُجب، وحينذاك، عرفتُ أنّ الرصاصة معطوبة، تشبه أصحابها الذين كانوا يظنّون فيما يظنّون أنّهم قد غَلَبوا، لكنهم لم يدركوا أنّ الدماء التي أسالوها منذ أن جاؤوا إلى هنا، أغرقتهم في بركة طاهرة!

أيُّ إنتصارٍ هذا؟ عندما ينطلق الرصاص الجبان نحو صدور العُزّل؟ عندما تكون القوة غير متساوية؟

وفي حين كان الجرح يأخذني إلى أسئلته، انسحب الجيش من ثكناته البائسة التي أقامها في ميدان اللؤلؤة. وفي مكان ما في كربلاء، تردّد صدى انتصار الدم على السيف مرة أخرى.

صرتُ مغلوبًا بألم الجراح المفتوحة، مستسلمًا لهذا الوهن الذي باغتني، يُغشى عليّ تارة، وأفيق تارة أخرى. وحينما أصحو، أشعر بدوارٍ يهوّم رأسي، وأتمتم بهذيانٍ يردعه العطش، وأسمع ضوضاء الأجهزة الطبية الجامدةً، وضجيج الأطباء، ويظهر في عيني وجه أمي مثل طيف يغرّر بي للحياة..

"إنّه يحتضر، لن يعود إلى الحياة" قال طبيب تتدلى سماعة فحص القلب على رقبته، بينما يجفف حبّات العَرَق التي تملأ جبينه بمنديلٍ أعياه القلق.

أمّا أنا، أنا الممدّد تحت هذا البياض الرخيم، الموصول بأنبوب مصل لا يُسمن ولا يغني، وبجهاز تنفّس اصطناعي، كنت في عالم غير هذا، كنت أذرع سُلَّمًا من سحاب نديّ يمتد في السماء، لكنني كلّما صعدت أحسست بالمسافة وكأنها تتسع، صرت أترنّح مثقلًا بآلام الجراح، وعندما لم أصل إلى مكان، جلستُ على إحدى عتبات السُلّم المترامي، بين السماء والأرض، وهناك، أخذ قلبي يهفو شوقًا للصعود أكثر، لكنني لم أستطع، وأصبحت ألهث بينما أشاهد الصحو يملأ الأفق، ويقرع أذني صوت خرير يتلاشى في البعيد، ورغم الألم الضارب، أحسست براحة لم أشعر بها من قبل، فرحمة الله تشدني إلى السماء، وقوة أخرى تجذبني إلى الأرض.

كنت أجري وراء المعنى، وراء الحقيقة التي تقبع وراء السماوات. وبشكلٍ جدّي، كنت أتصبّب عرقًا خفّف عليّ وطأة الحضور الكوني.

وأستطيع القول، في موت النزهة هذا، أن روحي كانت تحلّق في علوٍّ مرتفع، لكنها لم تدخل أماكن اللاعودة.

"سأقوم بمحاولة أخيرة" قال طبيب آخر لأخي حسين وهو يتكهّن فشل المجازفة، فيما تنجلي تقطيبته عن وجل، واضطرابٍ مفضوح!

مدّ الطبيب مشرطه داخل الجرح ليبلغ الأماكن القصيّة، فشعرت بوخزٍ خفيف، لا أدري بالضبط ماذا فعل، وكم من الوقت قد احتاج هذا الأمر، لكن أساريره التي انفرجت فجأة، أصبَحَت تُنبئ بشيء أشبه بالمعجزة!

إنّها الحياة إذن، تُعيد لي خيبة الأمل على شكل نجاة!

وفي هذه اللحظة، شعرت بأن رجاءات أمي وتنهداتها تستحث الجرح أن يندمل، كنت كلّما طاب جزء من هذا الجرح عرفت أن أمي قد بسطت يدها البيضاء نحو السماء، وأدارت أقداري!

كانت روحي تتضور جوعًا للتحليق في سماء الله، حيث ينتهي ذلك السُلَّم اللطيف، لكن خيبة الأمل جاءت مضاعفة، وشعرت بغربةٍ شديدة، وكأنّ شيئًا ما تداعى في داخلي، وأخذ اليأس يتفاقم مثل شيء عنيد!

"يجب أن يواصل علاجه في الخارج، سوف أقوم بكتابة تقرير حول ذلك"، قال الطبيب الذي أشرف على علاجي، تمامًا أمام الباب الأبيض الكبير لغرفة العمليات، قال ذلك ومشرطه الذي لم تجف دماء جرحي من عليه، لا زال غير واثق مما حدث!

بقيتُ ممدّدًا في قسم العناية المشددة، أكرع الخيبة على مضض، وبينما كان الشعب في ساحات جهاده يقضّ مضاجع الظالمين، ويجوب في تظاهرات لم يشهد تاريخ البلاد مثلها، كنت أنا في ساحة جهادي أصارع هذا الجرح المزدوج، أرديه تارة، ويطرحني تارة أخرى.

أصبحتُ منقطعًا عن كل ما يجري في الخارج، ولا أعلم شيئًا، سوى تلك الأخبار الشحيحة التي يلتفت الأطباء فجأة، أنهم تحدثوا عنها أمام مرضاهم من دون أن يشعروا، ليصمتوا من بعد ذلك بشكل يثير الفضول، فلا تشفع الجراح، للجرحى مثلي، بأن يستطلعوا التطورات منهم!

ولكنني عرفت، أن الشعب قد تنفّس الصعداء بعد انسحاب الجيش من دوّار اللؤلؤة، وأنّ الثقة في مواصلة الحراك قد أصبحت مضاعفة، حتى تحقيق المطالب، والوصول إلى الغاية.

وفي صحراء القلب الذي تيبّست فيه أوردة الأمل، صار يباغتني عطر فاطمة، وعينيها الحانيتين. أسألها في هذا الوقت من الجرح المفتوح، ما هذا الشذا الذي تفضحه الأماكن النائية؟ وحينما لم تجب، عرفت كم أن القربة في الصحراء الشاسعة، تُماثل الحياة في حضورها.

وذات مساء، من تلك الأيام الثقيلة التي مرّت بشكل بطيء، كنت أشتاق خلاله إلى قمر السماء، فجاءني قمر الأرض بمحيّا السناء الذي يُعشي الروح، صار قبالتي فغاص الجرح خجلًا في مكان قصيّ، سيدي ما عاد للجراح معنى في حضرة المستشفى، وقلت كمن يستدرك هذا البقاء الباهت، سيدي، أصبحتُ عالقًا بين العلياء والطين، وحينما لم تجذبني السماء، ها أنت جئت تُعبِّد سلالم السموّ!

ولا أدري، لا أدري أيها البدر الذي يضيء سماء الوطن الكئيب، كيف راودتني فكرة الصلاة من دون وضوء، حتّى رُدَّت إليّ هذه البضاعة المزجاة. أكنت أنت ماء البدايات الذي غفلنا أن نتطهّر به؟ فصار لزامًا الآن أن نعاود قضاء مناسك العُلوّ!

راودني شعور بالخجل، واستعلمتُ هذا المجيء المدجّج بوحي التفاؤل، لماذا تحمّلت عناء الحضور سيدي؟ لتطمئن بنفسك على حصاد الأمل الذي غرسته؟ لا يأخذنّك القلق.. فإن شئت قمت الآن بلا جرح، ونثرت بياض هذه العمامة على ألمي.

شعرتُ براحةٍ عجيبة تستوطن هذا الجسد الخادر، وبكيت، بكيت كل هوادري الغزيرة، فمنْ أنا حتى يزورني هذا الشيخ الذي بدى جسمه واهنًا، لكن روحه لا زالت في شبابها!

الفصل الأول

٧

مرّت آخر أيام الدوّار دون أن أكون هناك، كنت أشتاق إلى المبيت في خيمتنا الصغيرة المطلّة على الجهة الشرقية، لكن هذا الجرح منعني.

تردَّد صوت الثوار في القصر، وعربد الشيطان خلال رأس الملك المضطرب، فأبى إلا أن يتبع شقائه.

وحينما لم تفلح أعمال «البلطجة» في تطويق الثائرين، وأصرّ الشعب على أن يتحرّر، أعلن الذي اهتزّ عرشه حالة الطوارئ*.

قرَّرت عواصم الأعراب تفريق دماء البحرانيين بين القبائل*، وكانت رياح آذار تعصف في الطرقات غاضبة، تثير الأتربة في وجوه رجال الأحزاب الذين استعدّوا للرقص فوق جثث الضحايا، وبدت أعينهم تبرق بالشرر.

إنها السادسة من صباح يوم أربعاء كئيب، عندما هاجمت قوات الخليج المعتصمين في ميدان اللؤلؤة*.

كنتُ مستلقيًا على سريري الأبيض في مستشفى السلمانية على مبعدة مسافة قصيرة من هناك، أستمع لهتافات الثائرين، وهدير طائرات الأباتشي، وأصوات الأعيرة النارية.

عاجلني شعور بالرغبة في النهوض، وقاومتُ ألم الجرح المزدوج، لكن قواي الخائرة لم تسعفني، وأخفقت في مشاركة الثائرين يومهم هذا، وصرتُ أتجرّع غصص الغياب عن ساحة المواجهة غصّة بعد غصّة، وقلقت، قلقلت بشكلٍ وكأنني لم أقلق من قبل.

كانت أربع ساعات من الترقّب، قطعتها جلبة أحذية الجنود الذين دخلوا ببنادقهم إلى المستشفى، يطلبون من الأطباء والمرضى رفع أيديهم إلى الأعلى!

وخلال برهةٍ غادرة، تحوّل المستشفى إلى ثكنة!

كان الجنود يتوجهون نحو المصابين ويعذبونهم! يبحثون عن الجرحى، وينكّلون بهم!

صارت قاعة العلاج مكانًا للضرب والركل والإهانات، وبدل أن يتسرب منها أنين الأوجاع، وأصوات أجهزة الأكسجين، بدأ يعلو منها صراخ التعذيب الأهوج!

صراخ الممرضات يتردّد في الممر، مع أصوات أعواد البنادق وهي تلكز ظهورهن!

وفي اللحظة التي بدأت شتائم الحقد تتطاير من وراء الأقنعة السوداء، في القاعة المليئة بالجرحى، أخذ الجنود المذعورون بتكبيل أيدينا بالأصفاد في قضبان الأسِرَّة التي بدت فجأة، مثل سجون حديدية.

أخذ الجنود يتدفّقون على المكان مثل ضباع ضارية، يتلفتون بشكل هستيري، ويتكلمون بلكنات القبائل المتحالفة، ويسألون، يسألون عن الجرحى، الذين بدى وكأن أجسادهم قد وُشِمت بالرصاص، للتعرّف عليها من بعد حين!

وكمن يشعر بالنشوة، كانوا يرفعون أيديهم بشارات النصر، فوق كل هذا الحشد من الجرحى، ولا أدري بالضبط، كيف يعتقد هؤلاء أنهم قد انتصروا، وعلى ماذا، ومن أقنعهم بالفعل، أنهم يواجهون جيشًا يماثلهم في القوة!

وللحظة، عرفت كم أنهم سفهاء، وأنذال، وفاجرون. وكم أنهم جبناء، وإلا كيف يختبؤون وراء هذه الأقنعة السوداء البائسة؟

كان قد أتى أحد الجنود باتجاهي، وصفعني على وجهي، لكنني، وعلى الرغم من ألم الجرح الغائر، لم أشعر بالانكسار، وإنما تبيّن لي، أنّ نظرتنا تجاه هؤلاء، لم تكن خائبة، وبدى كم أننا رخيصون في أعينهم، وأننا نستحق الموت بأبشع صورة!

كان صوت الصافرات في الخارج، وتهشيم زجاج السيارات، والفوضى، وأزيز الرصاص المتقطّع، وهدير الطائرات المروحية، لا زال ينبئ بأن المستشفى يتعرض لهجوم وحشي.

بدَّد الجنود حالة الأمن التي كانت سائدة في المستشفى، وصاروا يأتون ويذهبون، مثل حيوانات متوحشة، تفتك بفرائسها المكلومة.

وخلال لحظات، انكسف اللون الأبيض من القاعة، وبدت عيون المرضى شاحبة ومبهوتة من ضوضاء اللون الكاكي المرقّط. كان هذا اللون المزعج الذي احتلّ المكان، مثل تسرّبٍ في أنابيب المجاري.

كان المستشفى في قبضة ملائكة الرحمة دافئًا، لكن ذلك الدفئ الرهيف، سرعان ما تلاشى بعد أن أصبح في قبضة العساكر الغليظة!

مرّت هذه الجرعة من تحمّل هؤلاء الأوباش بشكل بطيء، وكنت حينها، أحتاج لعملية جراحية ثالثة، كانت ستُجرى لي في فرنسا، لكن الهجوم الغادر، عطّل السفر إلى هناك.

قال الطبيب وقد بدى قلقًا على حياتي: لابد أن يسافر اليوم، الطائرة تنتظره. هناك خطر على حياته.

لكن الضابط الذي اعتلت كتفيه ثلاث نجمات سيّئات حظّ، ردّ من دون اكتراث: لن يسافر.. قم باجراء عمليته أنت، وهنا..

كان هذا آخر ما سمعته قبل عمليتي، حيث وقف الطبيب الجرّاح يوغل بمشرطه الحاد في غيابت الجرح لثماني ساعات متواصلة، بينما توصله سماعتيّ أذن بالطبيب الفرنسي عبر مكالمة هاتفية طويلة، ودون أن يعلم، أن أصابعه التي ترتجف على وقع هذا الوقت الوطني الرهيب، وتبضّع بشكل يائس في جرح لا نهاية له، سوف تنجح في شدّ هذا اللحم المهترئ، وتُخرج هذا الألم منّ بعد حينٍ، إلى سيّارة سجنه.

صار المكان موحشًا، ويُخيّم عليه ظلٌّ كئيب، تمامًا مثل كل هذا الوطن المنكوب، حيثّ تحسّ بثقل اللحظة وهي تكمن في الأشياء، وينتابك شعور بالغضب الشديد، لكنه يتكسّر مكبوتًا تحت سطوة العجز القسري القاهر، ثم يتلاشى، ثم يزداد، ولا تدري بالتحديد، متى سينتهي.

ومنذ البداية، منذ أن سمعتُ جلبة الأحذية العسكرية، عرفتُ أنّها زوبعة، مثل كل الحماقات التي يرتكبها هؤلاء في كل مرّة، تنفيذًا لأوامر أسيادهم، الذين ظنّوا هذه المرّة أيضًا، أنّهم سيكسبون الجولة في أقصى سرعة ممّا يتصوّرون.

ومع ذلك، سرعان ما تراءى لي، أنّ كلّ هؤلاء المقنّعين الذين يذرعون في أروقة المستشفى بضمائرهم الميّتة، يائسون من المواجهة، وأنّهم جاؤوا إلى هنا يتستّرون وراء هذه الأقنعة، حتى لا نعرف كم أنّهم يرتعدون.

وفيما كنت ممدّدًا في سيارة الاسعاف لنقلي إلى المستشفى العسكري، تساءلتُ كمن اصطاد هذه اللحظة الوطنية التعساء، وسَخِرَ من تفاصيلها، حيث الدماء تسيل في الشوارع تحت ضربات هستيريا القوّة المنفردة: أهذا هو الجيش؟ وهذه ثغوره؟

ولقد أراد هؤلاء الجنود، منذ اللحظة الأولى لاحتلالهم المستشفى، أن يقفوا فوق أنقاض انكسارنا وصرخات استرحامنا، لكنهم لم يعثروا على شيء، ومن بين كل هؤلاء الجرحى والأطباء والممرضين، لم يحصلوا على تلك اللحظة.

وبينما كانوا منشغلين في الحصول عليها، عثرت أنا على الأشياء التي لم يعثروا هم عليها، ومن تحت أقنعتهم التي يرعبها الكشف، رأيت خيبتهم تتدلّى، وعرفت، عرفت بشكلٍ لا يمكن أن تستره أقنعة الدنيا، أنّهم هُزموا.. وأنّ هيبتهم تبدّدت!

مقيّدًا، وصلتُ إلى المستشفى العسكري بعد أيام من جحيم احتلال السلمانية، وكنت أظنّ، أنني سأرتاح قليلًا هناك، بعيدًا عن أولئك الجنود الذين بَدَت إنسانيتهم متداعية، وهناك، كان عليّ أن أواجه ما هو أقسى وأمرّ، حيث المعذبين أطباء وممرضين!

كنت أئّن من جراحي، وعلى عيناي عصابة لا أرى من خلالها سوى أضواء شحيحة، ورجلاي موثوقتان في السرير، وحين لا أجد ما يُسكّن وجع ضلوعي المهشّمة، ونزيف رئتي، يأتي طبيب وقد داس على القَسَم الطبي، ليضرب مكان الرصاصة التي فشلت في استنزال شموخي، كان يقول بسادية طائفية واضحة، يجترّ معها ضحكات شيطانية طافحة: «آل خليفة» أسيادكم.. دع «الدوّار» ينفعك..

ووقتذاك، وفي حين كان شعب البحرين يتعرّض لأقسى صنوف التنكيل في تاريخه، وفي مكان ما، من أعلى نخلة منامية يابسة، أخذ الدم يقطر من جناح حمامة فاختّة مجروحة، وتطاير ريشها في الهواء، وقبل أن يهوي على الأرض التي بدت لوهلة، مجدبة، ظَهَرَ هديلها مثل لحن مُغتمّ!

الفصل الأول

٨

كانت الشوارع في البحرين غير آمنة، وأشلاء الضحايا منثورة في الطرقات، مثل ورود قطعتها سكّين الهمجية، عندما أنزل قاض عسكري، مطرقته على طاولةٍ خشبية خرساء، نُصبت فوق جماجم القتلى وآلام المعذبين، ونَطَق بفم يسيل من شدقيه خطّيْن أحمريْن من الدماء، وحكمني بالسجن ثلاث سنوات.

وفي حين كان جندي الجيش الذي أصابني برصاصته، واثقًا وطليقًا، كانت التُهَم التي وُجهت لي، هي التجمهر، والاخلال بالأمن العام، والتحريض على كراهية النظام!

كان هذا الحكم الظالم بالنسبة لي، مثل عزاءاتٍ أواسي بها شعبي، ولم أشعر بالندم أو التذمّر، وحَلّت في قلبي، طمأنينة تشبه سكينة الفجر.

ومن بين ركام الألم، وغبار الأنقاض التي أسقطوها فوق رؤوسنا، لم تظفر بي الهزيمة، ولم يقاربني الانكسار، وزادتني رجفة صوت القاضي العسكري وهو ينطق بالحكم، شعورًا بالعزة والكبرياء والشموخ.

ورغم أنّ جسدي كان يئن، إلا أن روحي لم تكن كذلك.

وقلت في نفسي كمن يذكّرها، أن النصر وليد التضحيات، وصرتُ أقرأ هذا بصبرٍ جميل، أن السجن وسياط الجلادين، ربما يكونان أرضى عند الله، من الشهادة التي تعني في النهاية، الخروج من الحياة، والتخلّص من هذه الآلام.

وفي السجن، هذا الذي لم تُغلق أبوابه طوال تاريخ وطني، تعرفتُ مرّةً أخرى، على قصص الظلم التي يحترفها، وبدت آثار التعذيب على أجساد السجناء، مثل خرائط وطنية لابد منها، لترسيم الحدود بين الظالمين والمستضعفين.

وتَنَامَت أُلفتي، بصحبة الأساتذة والمعلمين والأطباء والرياضيين والطلبة والعمّال.

كان السجن مرآة الخارج، عادلًا في اختيار شرائح المجتمع وفئاته.

وعلى الرغم من قساوة جدرانه الاسمنتية الشاهقة، وأبوابه الفولاذية المُحكَمة، إلا أنه سرعان ما يحتويك، مثل طالبٍ يتجاوز دهشة اليوم الأول، في الصف الأول، من المدرسة الأولى.

أيعقل ذلك؟

أن يكون هذا المكان مدرسة؟

ومن بابٍ فسيح مدجج بالحراسات والكاميرات الأمنية والأسلاك الشائكة، يدخل الأحرار مدرستهم تلك، بملئ ارادتهم التي وضعتهم على الطريق، في مواجهة عدوّ يعلمون جيّدًا بأنه سيغيّبهم خلف أقبية السجون ولا يعلم هؤلاء، أن السجن يقدح في عقول الأحرار، معاني الحياة، ويُعرّفهم بحقيقة الأشياء، سيّما تلك الحقيقة المتعلّقة بالظالمين، وكيف أنّهم لا يغيّرون من طريقتهم في مواجهة الشعوب، وأنّ حالهم هذا، لا يمكن إصلاحه!

السجن آلة الظالمين، في كل زمانٍ ومكان، لكنه كذلك، يكشف عن وجوههم القبيحة بكل ملامحها الحقيرة، والتي لا يمكن تجميلها أو تغييرها.

كان السجن قيد الحرية، ولكنّه بالنسبة لباحثٍ عن لحظة الخروج من الشرنقة مثلي، كان قيد الشهادة.

لم تكن كل المشاريع الحياتية المعطّلة، تعني شيئًا، فقد كنت دائمًا، أريد سجنًا مثل غارٍ تعصرني فيه الوحدة، وأزاول فيه تعتيق الروح، لتنضج وتستوي وتتشكّل، وتنعتق من الرغبات والآمال والأماني، وها أنا قد حصلت عليه!

كان الإمام الكاظم ضماد الجروح التي لا تبرأ، ورفيق الرحلة الطويلة، يطلّ عليّ من طامورته مبتسمًا، فتهبّ مع نظرته الحانية، نسائم حريرية تداعب وجهي. كان مثل مرسى، وكنت المراكب والحبال المشدودة ونوارس السماء.

وفي الخارج، كانت مساجد الله تُجرف بالبلدوزرات، والشهداء يَدرّون دمائهم لوطنٍ كثيرًا ما، تعطشت تربته للمزيد منها، وبيوت المواطنين وحرماتهم وأملاكهم، تُستباحُ بلا رحمة. والجيش يترجّل في الشوارع، ويطلق الرصاص من فوق الدبابات!

كان هذا أكثر ما يؤلمني، ويحبس أنفاسي.

كان ليل الوطن طويلًا، وكئيبًا، ومثقلًا بالحزن، وقد بدى من وراء القضبان، ممزّقًا ومتعبًا، وكنّا نُسكّن آلامه بعِتاد السجن الوحيد، بالدعاء والصلوات.

وعندما ذَهَبَت السَكرة، جاءت الفكرة بلجنة تحقيق بسيوني*، والتي تبيّن من بعد حين، أنّ النظام أراد من خلالها، أن يهرب إلى الأمام، وينثر الرمال في عين الثورة الوليدة!

وحينها، شَاعَ في أنحاء الزنازين المُرهَقة، وبيوت الضحايا التي زارتها النوازل، أنّ هناك تعويضات مالية للجرحى والمتضرّرين، الأمر الذي أثار حنق السجناء، فهذا النظام الذي لم يستوفي عهدًا قطعه، لا زال يظن أن هناك من يصدّقه!

ويومذاك، قلتُ في تسجيل صوتي، خلال مكالمة هاتفية واجبة، علّه يصل إلى مَن يصل: «أنا أطالب بالتعويض، وتعويضي هو عبارة عن، تنفيذ جميع مطالب هذا الشعب المتّفق عليها من قبل المعارضة»*.

قلتُ هذا بضرسٍ قاطع، أنّ هذه هي الرسالة التي يريد أن يوصلها شعبي، وأنّ هذا هو لسان حاله.

ومن فوق السجن الذي بدى وكأنّه، مثل برجٍ وقد تسلّقه هذا القلب. كان المداد الممنوع، يفرض رغبة الجريان، فلا يتوقّف:

في كل صباح، قبل شروق الشمس، يستيقظ الفجر من خَلدَته في أطراف الكون، فيضبط إيقاع الدنيا. ومع استيقاظه، يطلّ سنجاب صغير برأسه من فتحة شجرة كبيرة، ليتأكد من هذا الحدث الكوني الجميل.

وعلى ارتفاعٍ متوسّط، لإحدى سماءات هذا الوجود، يهيم سرب من الطيور المهاجرة على مهل، نحو الشمال. وتصطفّ نملة صغيرة، في الطابور الطويل الحثيث، قبل موسم الشتاء.

وبعيدًا في احدى الصحاري الباهتة، كانت لبوة كسولة ترمش بعينيها الواسعتين، من فوق شجرة يابسة، وقد أعشى بصرها ضوء الفجر الذي بدأ يتسلّل، وأصبح اخطبوطًا في مكان ما، من أعماق المحيطات، يراقص خيوط الشمس الدافئة بأرجله الرخوة.

إنّه الفجر..

جلال الفجر الهادئ..

فاتن، ويغمر الوجود نقاءً..

وهناك، في محور العالم، يطوف معتمرٌ حول كعبة الله، ببياض روحه وصفاء ردائه، بالايقاع الدائري الخاشع، فيما يهرول آخر بين الصفا والمروة ليبدّد سراب نفسه!

آه.. كم أنا مشتاق..

أما في كربلاء، حيث تتوارى الشمس هناك خجلًا من الشمس، فقد هوى عاشق على شبّاك ضريح مولاه، ليُسلِّم على الجسد الذي لا تجفّ دماؤه، وأخذ والهٌ آخر، يتثاءب متعبًا، بعد أن أحيا ليله في الرواق الجانبي لضريح أسد الله الغالب، في النجف الأشرف.

ومن سرداب الغيبة في سامراء الغافية، غَطَّ شائق بلوعته، واحمرارات عينه، بعد أن أعيته سؤالات ندبته.

وأنا..

أنا الذي ذَهَبَ مغاضبًا فظنّ أنّ أحدًا، لن يقدر عليه، صرتُ أنادي في الظلمات، أن لا إله إلا أنت، سبحانك إنّي كنت من الظالمين، منتظرًا بصبرٍ جميل، شمس الصبح القريب..

سجن جوالمركزي
٢٠١١

الفصل الثانى

من نقطةٍ في القلب تُشعل نبض العصفور الذي يبحث عن جناحيه، ويريد أن يحلّق، كنت في نقطة الحراسة رقم واحد، أجلس وراء الستار الرملي المحاذي لزاوية مدرسة الدراز، لأحرس فضاءنا المُهدّد بالانقباض!

إنّها الثانية فجرًا من ليلةٍ تشبه ليلة عاشوراء، أنا أرتدي كفنًا ناصعًا في بياضه، يشتاق أن يكون لوحة السماء، عندما تتضرّج بحمرة الغروب الأخير.

ومن خلف متاريس الدفاع المقدّس، أقف منتصبًا، أُخفي وراء هذا الكفن، آثار الرصاصة التي فرّت في المرّة السابقة، وادّخرتني من أجل هذه اللحظة.

كانت ليلة منزوعة من الزمن، لا تشبه كل الليالي التي مرّت في شريط العمر، ليلة تنبئ بالأسى، لكنها رغم هذا الاضطراب الذي بدى وكأنه يتسلّط عليها، صافية مثل صفحة سماء، وكنتُ أشعر بسكونها، وكأنه يستحثّ الحبّ أن يُشرق في هذا الصدر، الذي طفق فجأة، يصبح فسيحًا مثل أرض تكسوها أزهار الربيع، ومنشرحًا ببهجةٍ، طالما حمحم مثل خيل جموح يركض ورائها.

كان الملك الذي أثقل ظهره بالدماء والظلامات، قبل عامين من هذه الليلة الرحيبة، قد أشاح عن آخر أوراقه الخائبة، وبَدَلَ أن يتراجع أمام شعبه، الذي أكملت ثورته للتوّ أعوامها الخمسة، تقدَّم خطواته الأخيرة.

كان ذلك في ظهيرة يوم من أيام حزيران الحارّة*، على أعتاب شهر الله الحرام، عندما أصدر الملك المذعور، ومِن دون أن يدري أنّ الرمال من تحت قدميه سوف تتحرّك، مرسومًا باسقاط جنسية آية الله الشيخ عيسى قاسم، وفَرَض حصارًا شرسًا على كامل مسقط رأسه، معتقدًا أنّه يُضيِّق الخناق، على آخر معاقل المعارضة التي طالما صدَّعت رأسه!

امتلئتْ، بشكل عفوي، في قيظ ذلك اليوم اللاهب، الشوارع المحيطة بمنزل الشيخ، بالناس، التي ماً فتئت، ترفع قبضات الغضب، لتُقرِّر منذ تلك اللحظة، أنّها ستعتصم هناك من دون أمد، دفاعًا عن شيخها، الذي تعتقد أنّه ليس لقمة سائغة.

امتدَّ اعتصام «الفداء» حتى هذه الليلة، سنة إلا شهرًا، إلى هذه الساعة من هذه الليلة المُضيئة بقناديل الليل الكربلائي ذاته، ودويّ الشفاه الذابلة، وقلق الزينبيّات!

ورغم هذا الوقت الطويل، الذي كان بطول الرحلة الحسينية الهائمة على وجهها في أرض الله الواسعة، رغم ذلك، إلاّ أنه مرّ سريعًا، بجميع أحداثه التي لابد وأنّ أوراق التاريخ، ستنحني أمامها.

أربعة هجومات خاسرة، شنّها مرتزقة النظام على مفترشي ساحات الفداء، أقساها ذلك الذي سقط خلاله الشاب مصطفى حمدان شهيدًا، يسبح في دمائه مثل قمرٍ يتلوّى. وتظاهرات حاشدة كسَرت جبروت نقاط التفتيش والأسلاك الشائكة، وحلّقات دروس مثل كواكب جارية، وليالٍ مثل تلك التي تبحث عن رهبانها، لتُصلّي من خلفهم.

كان الشيعة، يتعرضون لأكبر حملة اضطهاد طائفي. وتم خلالها، ملاحقة فريضة الخمس، واخراس خطب الجمعة، والتضييق على الشعائر الدينية، وغلق المؤسسات السياسية والدينية المتعلقة بهم!

هي ليلة عاشوراء إذن، وأمنيتي، تلك التي أصبحت تتلفّت في طُرق السماء، صارت الآن تلبس في هذه الليلة المقمرة، زينة اللقاء المرتقب، وتنتظر بعطشٍ حسينيٍ غامر، كأس المستساغ الهانئ.

كنت مثل درويش يبحث عن تكيته، وقد وجدتُ تكيتي، بعد خمس سنوات من البحث عن لحظتي المذخورة.

والآن، في هذه الليلة بالذات، لابد أن أرقص حتى مطلع التلاقي.

نادرةٌ هي هذه اللحظة، مثل يوم العاشر، وأنا ممتّن لها بكامل عمري، بعد كل تلك السنين العجاف التي ابيّضت فيها روحي، وهي تستعجل قطف عناقيد العروج، وبعد كل رجاءاتي المُضْرَمة، ونداءاتي المبحوحة، وأوجاعي المكلومة، ممتنًا إلى السماء، بحيث إنني لو لم أكن هنا، لتحسّرتُ على ذلك طوال مكوثي في الأبدية، وخرجتُ مثل توّابٍ يريد العودة!

كانت تلك اللحظة الكربلائية الخالدة، قبل أكثر من ١٣٠٠ سنة من الآن، تستدعي أسف الدنيا على ضياعها، ولكنها تعاود الآن، بنفس الطريقة، لتُسجّل حقّ الفداء، لذلك الدين الذي خَرَج به سليل الركب ذاته، لا أشرًا ولا بطرًا، ليقول كلمة حقٍّ في وجه سلطانٍ جائر.

تذكّرتُ حبيب بن مظاهر، وهو يذرع طرق الكوفة المحاصرة، ليستلّ نفسه من بين قبضة الشرطة، وعيون العسس، ليصل إلى موطئ لحظته المنتظرة، لكنني سرعان ما تذكرت أيضًا، سليمان بن صُرَد، وهو يكفكف دموع اللحظة المفقودة، وكم تحسّر التوّابون على لحظتهم تلك.

هل يعيد التاريخ نفسه كما يقولون؟

هي الاختبارات ذاتها، تعتمل في قلوب الذين آمنوا بالله صادقين، ثم فرّوا من ساحة المواجهة تحت ذرائع شتّى، مؤثرين الراحة على جشوبة النزال.

وهناك، على الرابية التاريخية التي نمدُّ قاماتنا إليها في كل عام، ونبكي، صرنا فوقها الآن، بلباسنا الأسود المُوَشّى بالحزن الدفين نفسه، نتكلّف التماثل ونتقمّص الإباء، ونعاود كتابة تفاصيل الرواية بلسان الراوي العليم، وفي كل فصلٍ منها، تقف النماذج لتستعيد نفسها من رحم الأحداث!

يا لهذا الشريط المكرور، المرير، والمليء بمواقع الفخر والغصّة!

وكنت حينها أقول، لرفقة تلك الليلة التي لم نتخذها جملا، أنّ هذه اللحظة، ليست لأولئك الذين لا يعرفون قيمتها، ولا يشعرون بشيء تجاهها، وتزاحموا على النقيض من ذلك، على السراب الفاني، وتركوا المخيم الحسيني لعسلان الفلوات، وإنما للفتية الذين آمنوا بربهم فزادهم هدى.

كانت لأبدان تلك العصابة القليلة من أنصار ريحانة الرسول، حقًا في الحياة، لزوجاتهم وأولادهم وقبائلهم الكبيرة، لكنهم تدافعوا مثل فراشات، نحو مذبح الضوء.

ألا يُعدُّ ذلك جنونًا؟

وكنت أتسائل، كمتبصّر بَلَغ قمّة الحقيقة للتوّ، ما هو البدن إنْ لم يكن وردًا؟ وما هي الروح؟ إنْ لم تُذكِ أنف الدنيا بعبق الديمومة؟

أليست وظيفة الإنسان هي عمارة الأرض؟

الشهداء يعمرون الأرض كذلك، إنّهم يسقطون لتقوم فوق أجسادهم أسباب الحياة، ودواليك التتابع.

إنّ الشهداء يرحلون، من أجل أن يؤدّون أدوارهم في حياتنا، وأن ترفّ أجفاننا من غفلة الأشياء المألوفة، فنعرف الحقيقة. إنّهم يسقطون، حتى نيأس من التشبّث بغير الله، ونستمرّ في أداء إنسانيتنا بشكلٍ صحيح.

إنّهم يستشهدون، ليس من أجل أن نقيم على أرواحهم المآتم، ونُكثر العويل، إنما يفتدون لحظة الوعي، ويكشفون الطريق، ويُشجِّرون الشوارع المتقاعسة، حتى نقوم على أرجلنا، ونمشي.

ثم أنّهم، باعوا أنفسهم إلى الله، وتساموا عن كل شيءٍ غيره، فكانت أنفسهم مستعدةً للتضحية في سبيله، من دون أن تَعلَق في وحل الطين، والجواذب التافهة.

إنّ موتًا كهذا، أفضل بكثيرٍ عند هؤلاء من موت الفجأة، أو الموت على سرير المرض، أو غير ذلك من الموت الذيً يجري في حياة الناس في كل لحظة، فيسعى السعاة إلى حفظ أنفسهم منه، لكنهم لا يعلمون فعلًا، متى سيطرق أبوابهم المشرعة.

وللحظة، شعرتُ بالنعاس، لكن عيني تغالب نفسها، وروحي التي سكنت تحت ظلام هذه الليلة الجميلة، من وراء هذا المتراس الرملي، لا يمكنها أن تنام، فلم يعد للنوم معنى، بعد أن أشاح الأفق، عن ستائر الملكوت.

الفصل الثانى

٢

كنت حينها أنظر للأعلى، عندما ومضت في كبد تلك الليلة العاشورائية الساحرة، نجمة ناعسة في السماء، كأنها تغازل فيَّ شمائل الفداء، التي بدت فجأة، مثل وهجٍ يشعُّ من وجهي.

وانتبهت، انتبهتُ كمن تذكّر الآن، أنّ الشهادة تكشف عن وجوه أصحابها، أدران الألوان الشاحبة، وتُرخي عليها جمالًا شفيفًا، وألقًا خلّابًا.

كان الجميع هنا، ينتظرون لحظة الهجوم المرتقب. وفي كل زاوية، كانت ساحات الفداء، تحمل قصّة، وتصنع تاريخًا.

لكنني لوهلة، تذكرتُ لحظة خروجي من السجن، بعد عامين أنضجا في رأسي فكرة الشهادة.

مرّت ثلاث سنوات منذ أن تحررت، لكن كلام الشيخ يوم زيارته لي، لا زال يرنّ في أذني، ويدغدغ أمنيتي.

ويومذاك، صرتُ أشمّ عباءته الباهتة كمن يريد أن يشارك الأجيال التي تزوّدت به من قبل، وامتلأتُ من شموخه.

أردتُ أن أدخل تحتها ليتخلَّق في قلبي اليقين، هو رجل اليقين الذي يُبدّد حيْرة الطريق.

وحينها، وضعتُ رأسي على كتفه، وعندما شعرتُ بحرارة جسده النحيل الذي ذاب في الدروب، أطلقتُ لعيني عنان النحيب، لكن الرجل الذي لا يعرف إلا البأس، صار يربت على كتفي، ويتلو في أذني تباشير النصر القادم: أنتم أقوياء.. عناؤكم مكتوب عند الله، ويأتي النصر إن شاء الله.

لم يكن متفاجئًا عندما شكوته فوات فرصة الشهادة، وبدت قسماته الهادئة نفسها، لكنّه قال لي، كمن أخذني بفراسته التي تعبر الأماكن السحيقة: لعلّ الله ادّخرك لمسؤوليةٍ أكبر.

ومنذ ذلك اليوم، كانت رحلتي لا تتوقّف، وقوافل قلبي في سفرٍ دائم، وكنت أخفي في حقائب الزاد، الخشبة التي سأصلب عليها.

وفي تلك الأعوام التي كانت فيها الميادين ساكنة، يقبع شبّانها في السجون، ويهربون من بطش النظام في المنافي، كنتُ أجوس الأرض مع آباء الشهداء، من قبر شهيد إلى قبر شهيد آخر، وتنهمر الحسرة من قلبي مثل مطرٍ متدفّق، وتلامس قبور هؤلاء الذين ذهبوا، وتركوني هنا.

وشيئًا فشيئًا، وفي لحظةٍ ما، من ذلك الزمن الصعب، شعرتُ أنّ أمنيتي تلك، تبتعد كثيرًا، وأنّ ساحات المواجهة تذهب إلى هجعتها، بعد عناءٍ طويل، وأنّ الخطر الذي طالما كنت أتحيّنه، وأفتّش عنه، أصبح بعيدًا جدًّا، وأُصبتُ نتيجة ذلك، بخيبة الأمل، وأخذ اليأس يضرم ناره في صدري!

ولكنني، عندما أحكم يزيد خناقه على قافلة الحسين، وقامت قيامة الفداء، عرفتُ أنّ نبوءة الرجل قد خرجت من قمقمها، وأن أمنيتي بدأت تقترب.

وكنت أطوف في ميدان الفداء، مثل مُتيّم وَجَدَ معشوقته، وأتوحّد مع الله، وأناجيه في كل ليلة، بعينين دامعتين، وروحٍ مكسورة، أن يعطيني القوّة على تجاوز كل زينة الحياة، والاقبال عليه بوجهٍ أبيض.

قَطَع أخي كاظم حبل أفكاري بكأس شاي، لكنني كنت بحاجةٍ إلى شيءٍ منه، ليغذّي هذا الصحو الذي يتدفّق في عقلي.

وأخذت أقول، في هذا الوقت من حصار جيش يزيد، لمعسكر الحسين، أنّ «الفقيه» ليس فكرةً نصارع بها كل هؤلاء الآخرين، وإنما هي قيمة عليا، من ينبغيّات الأوطان التي سقطت سهوًا، في أحضان سلطة «السفيه»، وكان عليها أن تقاتل من أجل أن لا يتوغل هذا الأخير، في كل مفاصل حياتها، لأنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها.

ولقد كانت الأجيال، في كل مقاطع حياتها، بحاجةٍ إلى فقيه، حتى تنمو في وعيها وحركتها، وألاّ تنحرف عن أدوارها، لكنها لم تكن يومًا، بحاجةٍ إلى أولئك الحكّام المتسلطين، والذين يريدون قهرًا، أن يتأمّروا على الناس، وأن يحيكوا لهم المؤامرات، ويدمّروا حبّهم ووعيهم، ويسرقوا القوت من أفواههم. بل على العكس من ذلك، فقد دَفَعَت هذه الأجيال، من أرواح شبابها، والغالي والنفيس، حتى تتخلّص منهم.

إنّ تاريخًا يصنعه «الفقيه»، بمنبره ومسبحته وإمضاء حكمته، أشرف من كل تواريخ هؤلاء الحكّام الدكتاتوريين الحمقى، أولئك الذين باعوا أنفسهم للمستعمرين،

وخانوا شعوبهم من أجل أن يبقوا متربّعين على عروشهم البالية، وحوّلوا بلدانهم إلى سجون للأحرار والمثقفين وأصحاب الرأي.

وكمن يجادل أحدًا، قلت أنني لا أقصد أولئك الفقهاء التشطيريين، والذين يكفّرون كل المختلفين، وإنما أولئك الذين يدورون بطبّهم، ويُحكمون مراهمهم الوطنية، من أجل شفاء الأوطان، وخلاصها من مخالب الظلم والاستعمار والتبعية.

وإلى هنا، كنت أفكّر من وراء هذا المتراس الرملي الذي نحرس به هذه الأفكار المضطهدة، كيف قَلَبَ هؤلاء، شمس الظهيرة، إلى ليلٍ أعمى، وشيطنوا كل ما يمتّ بصلة إلى شجرة «الفقيه» المثمرة، ورموها بأقبح ما تنضح به آنيتهم القذرة!

وأصبحتُ أتسائل، من بعد ألف وطنٍ ووطن، كيف تتقدّم الأوطان، وهؤلاء الحكّام الذين أسرفوا في القتل، واستجلبوا الأغراب، وسرقوا خيرات الأرض، واستعبدوا الإنسان، وظلموا في الحكم، وباعوا الأوطان بثمنٍ بخس، يتسيَّدون عليها؟

ثم كيف وكيف وكيف..!

كيف تأمن الشعوب على نفسها من هؤلاء؟ فتُعلِّق آمال مستقبلها عليهم، وتسكت عن جرائمهم المفضوحة؟

ومن تحت عراء هذه الليلة الطويلة، وكأس الشاي الأسود هذا، كنت أقول للتاريخ، لهذا الذي سيسجلني بعد ساعاتٍ من الآن، بين صفحاته شهيدًا، وحتى لا نُلام في يوم ما، كما تم لوم غيرنا من أقوامٍ غابرة، أنّ الله سوف يحاسبنا بحسابه العسير، وستلعننا الأجيال بكل قسوة، لو تركنا رمز الإصلاح هذا لوحده، وأسلمناه للظالمين.

ثم استدركت، بعد أن أصاخ التاريخ أسماعه جيّدًا، وانتصب واقفًا: أنّ هذه المبارزة، هي بين مشروعين، هدفين، ورؤيتين، وأنّنا لا يمكن أن نخون عهد الوفاء لقائد هذه المسيرة، أو أن نرتكب بحقّه رذيلة نكران الجميل، بعد أن قضى عمره في خنادق الدفاع عنّا، فنفرّ من ساحة المعركة، أذلاّء صاغرين، ونُؤخذ من بعد ذلك، على حين استسلام، إلى المذبح نفسه، ولكن بلا لون، ولا طعم، ولا رائحة!

الفصل الثانى

٣

امتدّت ليلتي إلى أقاصي الروح، فأثارت في داخلي رغبة في احتضان طِفْليّ، لكنني سرعان ما شعرتُ بأنّ المسافة بيني وبينهما، مثل سراب الصحراء المترامية، وأحسستُ حينها بالظمأ وقد غزا قلبي.

وعندما أخذني الحنين إلى أبرار وعلي، ارتشفتُ شيئًا من الشاي الذي كَثُر سواده، وأمسكتُ بقلم أزرق، وورقةٍ خَطَّطَها نبضي، وهرعتُ إلى وجهيهما، كمن يتزوّد ببراءته قبل أن تُنكسر:

إلى صغيريّ، اللَذين سيصبحان بعد ساعاتٍ من الآن، ابنا الشهيد..

أكتب لكما من خلف الستار الرملي، للنقطة رقم واحد، المحاذية لزاوية مدرسة الدراز الإعدادية للبنات، حيث وضعني التكليف هنا، تمامًا في المكان الذي أعتقد أنّ الله يريدني فيه.

وقد تكون هذه اللحظة، التي أكتب لكما فيها هذه الرسالة المهورة بدمائي، وتحت لحاف هذا الليل الأخير، هي أطول لحظة في حياتي، وأستجمع الآن خلالها، كل مشاعر الأبوّة التي تغمرني. وتمرّ ببالي، مثل أطياف تغادرني، ضحكاتكما الطفولية الوادعة، ويتقطّع قلبي، ويتصبّب لهفة وشوقًا عجيبًا.

أميرتي أبرار.. وسندي علي..

لا أخفيكما، أنه يعزّ عليَّ مفارقتكما وأنتما في هذا العمر، مثل وردتَيْن غضّتَيْن، لم أشمّهما بما يكفي، لكنني، أريد أن تعرفا، بأنّ أبوكما، طالما ذاب في المبدأ، واستعدّ للتضحية من أجله، معتقدًا أنّ لقاءكما في الآخرة، أمرًا يقينيًا، لن يفوته أبدًا، فهذه الدنيا، كما يقولون، قنطرة للعالم الآخر.

ثمرتا عمري..

إنّ أمكما الكريمة، إنسانةٌ صالحة، وصاحبة قلب أبيض، وهي لا تعرف الشرّ أبدًا، وأرى كم أنّها تجتهد في تربيتكما، والسهر عليكما في ذلك. ولابّد أنكما تعرفان، حتى وأنتما في هذا العمر، كم أنني أحبها كثيرًا، وأنني -رغم قلقي عليكما- مطمئن لأنها ستكون بقربكما.

ولكنني مع ذلك، أوصيكما بشدّة، أن تطيعوها وتُحسنوا إليها، فالجنة تحت قدميها، ولا مناص من ذلك.

حبيبتي أبرار.. حبيبي علي..

إنّ الله يختبرنا في كل محطات حياتنا باختبارات قد تكون صعبة، ولابّد أنّ الهدف من هذه الاختبارات، هو أن نعبر إلى درجةٍ من درجات الكمال. لذا، فمن واجبنا، أن نصمد أمام التحدّيات، وأن لا نهرب مِن المسؤولية، لنجتاز كل ذلك بنجاح، ونُحقّق إنسانيتنا.

وسأكون مبتهجًا، أن تعرفا، أنّ معارك الحقّ والباطل، هي من المعارك التي لا تنتهي، حيث لابد أن نعرف جبهة الحق، وأن نعمل على تقويتها، ومن ثم، نقارع الباطل في الجبهة الأخرى، بكلّ قوة.

كما سأكون ممتنًّا لأمكما، أن تُخبركما، عن معارك الحق والباطل في البحرين، وعن نظام الحكم، الذي لم يترك لنا طريقًا آخر، إلاّ الصراع الدائم معه، وأنّ هذه المبارزة التي صبغت كلّ تاريخنا، وتاريخ أجدادنا بالدم، والعطاء، والتضحية، لا زالت مستمرة، وستستمر كذلك، بسواعد الأجيال التي ستكبر، والتي لابّد وأنها، سوف تنأى بنفسها، عن ارتكاب خزي الفرار من المعركة، والهوان.

ولابّد أنكما تدركان الآن، يا ولداي العزيزان، خلال قراءة هذه الرسالة، بعد سنوات من شهادتي، واتقانكم للقراءة، أنّ حكّام آل خليفة، وأمريكا، هم من قتلوا أباكما، وأنّ عِدائكما، ولعناتكما، تتوجّه صوب هؤلاء الأشقياء، إلى الأبد.

وقد تستغربان، كيف أن أمريكا قد قتلت أباكما، وأقول لكما، حتى لا تضيعا في متاهات التاريخ، أو يلتبس عليكما الأمر، أو تُغيَّب عنكما الحقيقة، فملك البلاد، كان قد زار الرئيس الأمريكي الجديد حينها « دونالد ترامب »، قبل يومين من شهادتي، وكان واضحًا جدًّا، أنّه يأخذ الاذن صاغرًا، من سيّده ومولاه.

إنّ أمريكا، –يا بعد الروح– تمثّل رأس الشرّ والاستكبار، وهي توظّف المال والعتاد والاستخبارات، من أجل أن لا تقرّر شعوبنا في المنطقة مصيرها، وتتحرّر من العبودية والتبعية، وتعود إلى إسلامها، وحتى تبقى ثروات الأمة ضائعة ومقتسمة بينها وبين الأنظمة العميلة، هذه الأنظمة التي تُدعم، ويُسند ظهرها في كل حين، حتى لا تسقط.

فلذتا كبدي.. الجميلَين..

لستُ أقول سرًا، عندما أخبركما، وأنتما الآن، لابد وأنكما قد وصلتما لربيع العمر، أنّ الإيمان، والعلم، والعمل، والبصيرة، والحكمة، والصبر، والثبات، والمقاومة، والشجاعة، والبأس، والإخلاص، والصفاء، والحبّ، هي عناصر ومكوّنات إنسان هذه الدروب الوعرة، وأنّ عليكما أن تحذرا، من الشك والتردّد، ومن لوثة اليأس، ومن آفة الركون إلى الراحة، ومن هشاشة القلب، ونقيصة الخوف، والغفلة، والضعف، والغرق في الملذّات والشهوات.

هدية الله.. أبراري.. وعلي..

"لا محيص عن يوم خطّ بالقلم**"** كما يقول الإمام الحسين (عليه السلام).
إنّ الموت يا أبنائيَّ لا هروب منه ولا مفرّ، وهو مثل ولادة جديدة، ندخل من خلالها إلى عالم أوسع من عالمنا هذا، وهو جميل جدًّا، عند من يؤمنون بوجود هذا العالم، وهو أشدّ جمالًا وسحرًا، عند من يريدون التضحية بأرواحهم على المذبح الإلهي، لأنهم في النهاية، مطمئنين بأنّ تضحيتهم تلك، ستبلغ بهم إلى الفرح بالحياة عند ربهم.
ولقد اقتضت حكمة الله، أن يكون هناك، هذا العالم الآخر، وأن تكون الدنيا مزرعة الآخرة، وإلا أصبحت هذه الحياة بلا معنى، وبلا هدف.

لذلك كان المجاهدون، يُقبلون على المواجهة في كل معاركهم، ويتربّصون إحدى الحسنيين، إما النصر أو الشهادة. وهذا هو سرّهم.

وكنتُ أتسائل دائمًا، أنّنا ما دمنا مؤمنين حقًّا باليوم الآخر، فلماذا نهرب من الموت، وهو معبر إلى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على بال بشر؟ لمزيدٍ من الحياة التي لا نعرف متى تنتهي؟ وأي مزيدٍ هذا وأمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: «إنّ الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهاربُ، ليس عن الموت محيد ولا محيص، من لم يقتل مات، إن أفضل الموت القتل، والذي نفس علي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش».

ولقد رأيتُ يا أولادي، كما رأى أمير المؤمنين من قبلي، وهو مدينة العلم، أنّ الفرار عار باق في الأعقاب والأعناق، ولئن فررنا من سيف العاجلة، فإنّنا لن نسلم من سيف الآخرة الذي هو حساب الله الصارم.

صغاري.. أبرار، وعلي..

أريد التحدّث معكما عن الكثير من القضايا، أريد أن أبوح لكما بأسرار لا زال صدري يكتمها، أريد أن أعلّمكما كل الأشياء وأن أرى دهشتكما وهي ترتسم في كل مرّة، وأريد أن أخرج معكما لنسوح في هذه الأرض الكبيرة.. لكنني على عجالة..

أرجوا أن نلتقي عند الله، وأن نكمل الرحلة هناك..

كونا بخير..

ميدان الفداء
٢٠١٧/٥/٢٣

الفصل الثانى

٤

تنفّس الفجر أخيرًا، وهبّت تبدّد غبشة الليل المديد، نسائم أيار العليلة.

نويتُ الصيام، ورحنا نصلّي صلاتنا الأخيرة، جماعة، بالقرب من المتراس، بينما يضيء مصباح أصفر شاحب، من منزلٍ قريب، بقعة المكان الذي وقفنا فيه.

وعلى وهج بقعة الضوء تلك، أحنيت رأسي منكسرًا، ورفعت يدي إلى السماء.. مثل من يعقد صفقة..

ذبتُ شوقًا أيُّها المُنتهى، وما عدتُ أتحمّل المزيد من الجفاء المرّ.. أقلني من ذنبي، اعتقني من خطيئتي، واقبلني سيّدي..

قرأتُ دعاء العهد كمن لا يريد أن تفوته لحظة الظهور أيضًا، ولا لحظة الفداء هذه، وتمتمُت بصوتٍ أوهنه الشوق إلى الغرّة الحميدة، «اللهم إنْ حال بيني وبينه الموت، الذي جعلته على عبادك حتمًا مقضيّا، فأخرجني من قبري مؤتزرًا كفني، شاهرًا سيفي، مجرّدًا قناتي، ملبيًّا دعوة الداعي في الحاضر والبادي»..

ثم أوثقت بعهدي مع هذا الكفن الأبيض..

مدجّجًا بثورةٍ في صدري جيّاشة، وروحٍ مثل درع ذائدة، كنتُ أتخطّى صفوف الفدائيين الذين بدأوا بإقدام، يواجهون عساكر النظام.

إنّه يوم ثلاثاء جميل، يشبه الأيام الجيّدة التي يختارها العرسان لإقامة الزفاف، وكان الضحى قد بدأ يترك الأرجاء لظهيرةٍ قانية، ساخنة ولا هدوء فيها.

ما أشبه الليلة بالبارحة، العساكر تواجه العزّل بالحديد والنار، وقوات النظام يتقدّمون نحو منزل الشيخ، وبين صفوفهم، مختلف أنواع القوات الخاصة، المدجّجة بالسلاح والعتاد.

كان زناد الورد مشدودًا، وباقة العمر مصوَّبةً نحو كل هؤلاء المرتزقة، ولم يكن بينها وبين لحظة الفداء، سوى أن يُدقّ زناد الروح من فوّهة الجسد.

انطلقت الصرخات من كل مكان، وكانت الأكفان على أجساد الفدائيين، وهم يهرولون في الشوارع، وكأن يوم الحشر قد حان. وكنتُ أفكّر وسط هذه المَوْقعة، وفيما أصوات البنادق تلعلع، عن هذا الصنف البشري السامي، والذي يقف بشموخه في ملاقاة الموت، بينما يستطيع النجاة بنفسه!

وتذكرتُ حينها، مثل من يعاود شريط الفداء المليء بالفخر، السيد مجيد المشعل، وهو يرتجز مبدئيته أمام الحشود التي توافدت في اليوم الأول من كل صوب: «هذه عباءتي، وأطلبُ أن أُسلَّم كفنًا بدلها.. لا أريد عباءة، أريد كفنًا.. لا نريد الحياة.. لا نريد وطنًا ليس فيه عيسى قاسم..».

تذكرتُ ذلك، وأنا أهرول بكفني..

أخذ الشباب يتدافعون بشكل جماعي وفردي نحو المرتزقة، ويصدّونهم عن التقدّم نحو منزل الشيخ، بينما صوت الهتافات الصادر من المكبّرات المنتشرة في المكان، يُشعل حماسهم.

كانت سحب الدخان المسيل للدموع، مثل من لا يعرف أننا لا نبكي، إلا في عاشوراء، لكن كثافته، بدأت تعلق في الأجواء، وتخنق أنفاس الفدائيين.

ذهلت لبطولات الشباب. وفي وسط الطرقات التي تتأوّه لوقع الأقدام وهي تعدو بلا توقّف، كانت الأشلاء تتطاير في الهواء، وترسم على الأرض، خرائط حمراء لا تُمحى.

ومن أمام منزل الشيخ، رأيت عددًا ممن بقيت جماجمهم، تنتظر الله أن يستعيرها، يقفون صفًّا منتظمًا، مثل درع بشري.

دقيقةً بعد دقيقة، كانت الأحداث تحتدم، الدخان يغزو المكان بسحابة بيضاء، والرصاص الانشطاري مثل مطر.. وكنت أتقدم خطوةً بعد خطوة، وأرمي ببصري نحو القوم، ولم يكن في أذني، سوى رنين البنادق، ومروحيات الهليكوبتر، وارتجازات الفدائيين هنا وهناك، وأصوات تهشّم الأشياء، وقرع الطبول.

وصرختُ، صرختُ مثل من يحشد قواه.. «يا أبا عبدالله».. وفي يدي درع بلاستيكي يتهادى..

تقدمتُ بيسر غريب، متوحّدًا في الطريق، نحو المرتزقة القادمين من جهة الغرب، وقد قررتُ أن لا أتراجع..

ولوهلة، أصبَحت الأصوات من حولي تتمازج مع صورٍ تتوالد مثل فقاعات في عقلي، والدي يطلب مني مساعدته في إصلاح مقبض البابِ الرئيسي لمسجد الوطية، ميسي يقفز فرحًا بعد هدفه البرشلوني على ريال مدريد، طفل يلاحق طائرته الورقية وهي تتهاوى على الشاطئ وتكسر أشعة الشمس، أبرار تقهقه ضحكتها الآسرة وتقبّل أخيها علي، الشيخ عيسى يقول «الطوفان بدأ لا ليهدأ»، زهير بن القين يكسر السهم الذي أصابه خلال صلاة ظهيرة يوم العاشر، أحدهم يقطع الصور بقوله «لبيك يا فقيه» وكأنّه يعيد التوازن لي، تَتَتابع الصور، ملا إلياس يقرأ المقتل ويردّد بصوتٍ أجشّ «واا حسين»، مصطفى حمدان يخور في دمائه، فاطمة تقول «نريد أن نخرج.. خذني إلى المحرق»..

خالجتني أشواق طارئة، وانشرحت في رأسي، أحاديث رائقة، وشعرتُ بفرح لا يُقاوم، كأنّ الكون صفاء، وحسيس الأشياء يدخل في هدنة السكون البهيج، المَوت حياة، أقول، بينما الشهيد محمد كاظم زين الدين الذي سبقني، يفسح الطريق من أمامي، وأطياف أحمد العصفور، ومحمد العكري، ومحمد حمدان، تحلّق في المكان، لكنها لم تعرج بعد. وللحظة، أدركتُ أنّ العودة مستحيلة، شيء ما في صدغي تغيّر، وإلى الأبد.

أشير بسبابتي نحو منزل الشيخ وأنا أترنّح ساقطًا، «السلام عليك يا أبا عبدالله» أقول، بشفاهٍ شقّقها العطش الجميل، رجلي مهشّمة، وخاصرتي تشخب، أشعر بالسأم وقد طغى في صدري، الشهادة هي هذا، أن تسأم وتضجر وتملّ من مجاراة الظالمين والعيش معهم، أن تقرر الموت السعيد.

لا يكاد محمد كاظم يأخذني. الهدوء يدبّ في الأشياء، يبدو مرهفًا مثل فجر ينسلخ من غسقة الليل العابق برائحة الورد عندما ينتشر عليه الطلّ، أجدني الآن مستلقيًا على الاسفلت، بعد أن دَقَقتُ وردي، ودمائي تسكب فداءها، وألامس بأصابعي، غبار الضوء المنبعث من كربلاء.

تمّت

٢٠٢١/٤/٨